جمهورية مصر العربية
مجمع اللغة العربية

طه حسين في المغرب

بقلم
الدكتور عبد الهادي التازي
عضو المجمع من المغرب

القاهرة
١٤٢٠ هـ ــ ٢٠٠٠ م

جمهورية مصر العربية

مجمع اللغة العربية

طه حسين في المغرب

الملك محمد الخامس يقلد الدكتور طه حسين وسام الكفاءة الفكرية

بقلم

الدكتور عبد الهادي التازي

عضو المجمع من المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

للأستاذ الكبير الدكتور ***طه حسين*** حامل لواء النهضة الأدبية العربية فى القرن العشرين موقف مجيد من شعب مراكش المغربي ، وملكه محمد الخامس حين اعتدت فرنسا عليهما سنة ١٩٥٣ ونفت الملك وأسرته إلى كورسيكا ثم إلى مدغشقر، وأخذ شعبه يكافح فرنسا كفاحا عنيفا، واشترك معه الأستاذ الكبير الدكتور ***طه حسين*** فى هذا الكفاح بمقالات صحفية ملتهبة ، ورد إلى فرنسا وسام جوقة الشرف الذي كانت أهدته إليه غضبا للمغاربة الأحرار الثائرين عليها فى مراكش ومليكهم . ونجحت الثورة ، إذ فرضت على فرنسا إرادتها وأجبرتها أن ترد إلى شعب مراكش سنة ١٩٥٦ مليكه وحريته وسيادته واستقلاله الكامل .

ودعت مراكش الأستاذ الكبير الدكتور ***طه حسين*** لزيارتها عرفانا بصنيعه وما أدّى إليها فى ثورتها من إسهام حميد ، وزارها فى صيف سنة ١٩٥٨ واحتفى به شعب مراكش ومليكه حفاوة عظيمة . وفى هذا الكتاب يصف الأستاذ الجليل الدكتور ***عبد الهادي التازي*** عضو مجمع اللغة العربية عن مراكش هذه الزيارة التاريخية وما استقبل به من حفاوة وما ألقى فيها

من محاضرات نفيسة تناولت مكانة الأدب العربى بين الآداب العالمية ، والأدب العربى بمصر قديما وحديثا ، ومشاكل الأدب العربى بعد الإسلام ، وبعض مشاكله فى العصر الحديث . والأستاذ الدكتور **عبد الهادي التازي** مشكور أصدق الشكر لتسجيل هذه الزيارة ومحاضراتها بحيث يمكن ضمها إلى أعمال الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين الأدبية التاريخية التحليلية بما اشتملت عليه من آراء وأفكار قيمة .

وسجَّل الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي في الكتاب لقاء الملك محمد الخامس للأستاذ الكبير الدكتور طه حسين وإهدائه إليه وسام الكفاءة الفكرية أعلى أوسمة المملكة المغربية ، وهو أول من تقلد هذا الوسام المغربي الرفيع ، وحيَّاهُ الملك العظيم تحية كريمة شكر له فيها موقفه مع الشعب المغربي في كفاحه ضد فرنسا وقال له متلطفا إن الشعب المغربى كان ينتظر زيارتكم له منذ أمد طويل .

وباسم المجمع اللغوي واسمي أشكر للأستاذ الجليل الدكتور عبد الهادي التازي إيثار المجمع بوصفه البديع لهذه الزيارة التاريخية للأستاذ الكبير الدكتور طه حسين لمراكش وما سجل فيها من محاضراته القيمة .

والله ولى الهدى والتوفيق .....

رئيس المجمع اللغوي

الأستاذ الدكتور شوقي ضيف

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

هذا بحث كان من وحي المحاضرة القيمة التي ألقاها الأستاذ الدكتور **شوقي ضيف** رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة في مؤتمر المجمع ، الدورة الثالثة والستين أثناء الجلسة الرابعة عشرة ، بالقاعة الكبرى لدار المجمع مساء الاثنين ١٥ / من ذي القعدة ١٣١٧ هـ = ٢٤ من مارس ١٩٩٧ م ، تحت عنوان (***طه حسين المجمعي***) .

لقد تلت تلك المحاضرة تعليقات كان من بينها تعليق لي مقتضب عن زيارة الدكتور طه حسين للمغرب ومحاضراته التي أشار في آخرها - وهو بتطوان - إلى محاولة إصلاح النحو في القرن السادس الهجري من لندن القاضي المغربي ابن مَضاء الذي كان الدكتور **شوقي ضيف** كتب عنه قبل سنوات .

وقد شعرتُ بأن موضوع الزيارة في حاجةٍ إلى استيعاب أكثر ، وعسى أن تؤدي محاولتي هذه ما أردته منها ...

كان الحافز الذي دفعني إلى كتابة هذا البحث مزدوج الهدف ، **فهو أولاً** برور بروح هذا الرجل الذى وقف حياته على خدمة اللغة العربية وآدابها .

ثانيًا ، تغطية لفترة هامة من حياته لم تحظ بما تستحقه من تحقيق وتوثيق، إنها الفترة التي قضاها بالمغرب في صيف ١٩٥٨م ، والتي كانت، على قصرها ، فترةً ثريةً غنية بالعطاء لم ينتبه إليها سائر الذين ترجموه أو أنهم عالجوها علاجًا محتشمًا بما في ذلك المؤلفات والمجلات التي خُصصت في مصر لحياة وإنتاج الرجل ، علاوة على ما ارتكبه بعضهم من أخطاء في التاريخ أو في الموضوع أو المحتوى ، وقد رأيت من واجبي - وقد كنت رفيق الدكتور يومًا عن يوم ولا سيما وقد كان لهذا الحديث أثره في مسيرتي العلمية - أن أقوم بملء هذا الفراغ من حياة رئيسٍ سابقٍ لمجمعنا الكبير .

د . عبد الهادي التازي

عضو المجمع عن المغرب

الدكتور طه حسين بالمغرب

دوره في صحوة الفكر من خلال محاضراته وندواته

لقد كان محظوراً علينا أن نتصل بالمشرق إلا عبر القنوات التى تسمح السلطات الاستعمارية بالمرور منها ، وكذا فإن النشرات الواردة علينا من المشرق كانت تخضع بدورها لرقابةٍ محكمة ، وحتى صُوَر قادة المشرق وزعمائه كانت تتعرض للمصادرة بل وللعقاب الصارم على امتلاكها وترويجها !

وقد وجدت نفسى ذات يوم بالسجن عام ١٩٣٧م لأن الشرطة عثرت فى بيتنا على رسوم لسعد زغلول وفريد وجدى وقاسم أمين ! لقد سألونى عن علاقتى بهؤلاء فقالوا: هل هم أخوالك أو أعمامك ؟ والحقيقة أننا كنا نتبادل سراً بعض الكتب التى تتسرب إلينا من المشرق من أمثال "حاضر العالم الإسلامى" الذى ترجمه الأستاذ عجاج نويهض (١) وكتاب " لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم" للأمير شكيب أرسلان ، وياويلَ من ضبطت عنده ورقة من مثل هذه " المخدرات " ! وقد ازداد الحصار إحكاما عندما احتدت المعركة بين الوطنيين والاستعمار ، أواسط الأربعينيات، عندما طالب المغاربة باسترجاع استقلالهم ، واشتدت المواجهة أوائل الخمسينيات عندما توالت كتابات المصريين عما يجرى بالمغرب من تجاوزاتٍ خطيرة بلغت حد تهديد العاهل المغربى الملك محمد الخامس بخلعه عن العرش إن هو تمادى فى مناصرة الحركة الوطنية التى تطالب بالاستقلال.

وفى أعقاب أزمة ٢٥ فبراير ١٩٥١م توهم الاستعمار أنه سيجد فى صحافة مصر ما ينفس عنه .فاستقدم الدكتور محمود عزمى عن جريدة (الأهرام)

---

(١) the New world of Islam : lothrop Stoddard

وقد علق عليه الأمير شكيب أرسلان ،طبعة أولى ١٣٤٣-١٩٢٥ .

ليقف بنفسه على زيف " ادعاءات " الوطنيين وأن البلاد تعـــانى مـــن الظلـــم والحيف، ولكن الدكتور عزمى عاد من المغرب يحمل معه أجوبة مكتوبة مـــن لدن العاهل المغربى ، الأجوبة كانت تُدين المحاولات الرخيصة للتفرقة بين الملـــك والشعب حيث نشر الاستجواب صورةً وحرفًا فى جريـــدة الأهـــرام بتـــاريخ ١٩٥١/٣/٢٧ [١] .

وما زلت أذكر أن فى صدر الحملات العنيفة التى كان الوطنيون المغاربـــة يوجهونها ضد الحماية أنها كانست تحرم على المغاربة فتح المدارس لنشر التعليـــم مع أن طه حسين وزير المعارف وقتها كان ينشئ العديد من المـــدارس ويقـــرر مجانية التعليم الثانوى ويعلن أن التعليم ضرورى للناس ضرورة الماء والهواء .

لقد كانت مصر لنا بمثابة القبس الذى يهدينا إلى الطريـــق ونحـــن نقـــاوم الاستعمار[٢].

وقد ركب الاستعمار رأسه فأقدم على نفي الملك محمد الخـــامس،يـــوم ٢٠ غشت[٣] ١٩٥٣ والذى كان يصادف عيد الأضحى عند المسلمين . وهنا لم يكن من الغريب أن يسمع الناس بالمغرب أن الدكتور طه حسين يُرجع الوسام الفرنسى (لا ليجيون دونور) من رتبة فارس كبير احتجاجًا على ما يجرى فى الجناح الآخر من العالم العربى!

---

[١] د. التازى : التاريخ الدبلوماسى للمغرب ، ج ١٠ ص ٢١٤ – ٢٢٣ رقم الإيداع القانونى ١٩٨٦/٢٥ مطابع فضالة – المحمدية – المغرب .

[٢] من الطريف أن نجد أن النشرة التى كانت تصدرها إدارة الحماية تهتم بقرار طه حسين إدخال اللغة الفرنسية بالمدارس الحكومية لكنها أهملت القرارات الأخرى المتعلقة بمجانية التعليم.انظر النشرة (Bulletin) عدد ٢١٦ الأربعـــة الشـــهور الأخيرة١٩٥٠.

[٣] غشت – أغسطس

ولقد كتب الدكتور طه حسين - بعد نفي الملك محمد الخامس وولي عهده وسائر أسرته إلى كورسيكا ثم إلى مدغشقر - مقالا بجريدة الجمهورية عدد ١٩٥٣/١٢/٢٩م يحمل عنوان (حول هوشي منه ومحمد الخامس) .

وأردفه بمقال آخر فى الجمهورية يوم ١٩٥٤/١/٦م حول (محمد بن عرفة) الصنيعة التى نصبها الاستعمار عوض الملك محمد الخامس !

ثم كتب بعد أن ظهرت بوادر النصر فى أعقاب الكفاح المرير الذى خاضه الشعب المغربى من أجل إرجاع مليكه ، كتب يقول : " فرض الشعب المراكشى إرادته على فرنسا فاضطرها اضطرارًا إلى أن تعترف باستقلاله وسيادته، وأكرهها إكراها على أن تفاوض السلطان الذى أنزلته عن عرشه منذ عامين ونفته إلى جزيرة نائية فى أقصى المحيط ، وقدرت أنها ستجعله نكالا للثائرين بها والمتمردين عليها فلم يُغنِ عنها مكانُها الرفيع وصيتها البعيد وبأسها الشديد وسلطانها الواسع شيئا ، وإنما مضى الشعب المراكشى فى ثورته وأضاف عنفًا إلى عنف " .

كانت أمثال هذه المواقف بمثابة البلسم الذى يضمد جراح المناضلين والمبعدين الذين استمروا فى كفاحهم إلى أن عاد محمد الخامس من منفاه يحمل معه استرجاع المغرب لحريته واستقلاله على ما أكده الدكتور .

وينبغى أن نتصور مدى ابتهاج المغاربة وقد أصبح فى مستطاعهم أن يستقبلوا ضيفًا كبيرًا كان هو الدكتور طه حسين [١] !

---

(١) كانت فاس قد احتضنت فى رجب ١٣٧٧ هـ - يناير ١٩٥٨م المؤتمر الإقليمى العربى الأول للجان الوطنية لليونيسكو تحت الرئاسة الفعلية لجلالة الملك محمد الخامس ، كان فى صدر المشاركين فيه د. أحمد زكى وحسين فوزى وأحمد فكرى إلخ ... انظر الوثيقة الخاصة بهذا اللقاء التى أصدرتها وزارة التربية الوطنية - المطبعة الاقتصادية - الرباط .

لقد غمرتنى فرحة زائدة وأنا أجد نفسى بطنجة يوم الثلاثاء ٢٤ يونيه ١٩٥٨م أستقبل فيها الزائر الكريم نيابة عن وزارة التربية الوطنية وضمن الوفد المغربى الذى صحبه فى خطواته .

أذكر جيدًا اجتماعنا ببيت السيد الدكتور عبد اللطيف بن جلون عامل طنجة الذى خصص استقبالاً حميمًا لعميد الأدب العربى الذى وصل ، عبر جبل طارق ، بصحبة زوجته السيدة سوزان إلى جانب كاتبه الخاص السيد فريد شحاتة .

وفى هذا الاجتماع ببيت هذا السيد العامل ، عندما كان الدكتور فى جلسته الهادئة يستمتع بنسيم البحر تسلل كلبٌ ضخم الجثة من نوع (بيرجى) كانت تمتلكه السيدة زوجة العامل ، ومضى الكلب نحو الدكتور طه حسين ، وبدون سابق هَرِيرٍ أخذ يحتك بركبتى الدكتور !

شعرت بالضيف يفاجأ بصنيع هذا الطارئ ولكن الدكتور بما عهد من ظرف ولطف حوَّل المفاجأة إلى تعبير أدبى رفيع، وتمثل بقول حسان بن ثابت فى أولاد جفنة:

يُغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل !

قالها بصوته الجهورى المعروف وأسلم الحاضرين إلى مجلس أنسٍ جميل .

بهذا ابتدأت بالمغرب أيام طه حسين التى كانت أيام أعراس أدبية علمية رددت صداها سائر أجهزة الإعلام المكتوبة والمسموعة ، وهكذا فبعد أن قام الدكتور يوم الأربعاء ٢٥ يونيه بزيارة للسيد الحاج أحمد بلافريج رئيس الحكومة ووزير الشؤون الخارجية ثم بزيارة وزير التربية الوطنية الحاج عمر بن

عبد الجليل ، وبعد أن حضر مأدبة العشاء التى أقيمت على شرفه فى بيت السيد الحاج أحمد بنانى مدير التشريفات الملكية ، والتى تميزت بحضور صاحب السمو الملكى ولى العهد آنذاك الأمير مولاى الحسن ... بعد ذلك قام الدكتور طه حسين صباح اليوم الموالى الخميس ٢٦ يونيه بمقابلة صاحب الجلالة الملك محمد الخامس حيث قرأنا فى الصحيفة الرسمية " العهد الجديد " البلاغ التالى :

" حظي الدكتور طه حسين إثر وصوله إلى الرباط بمقابلة صاحب الجلالة الملك المعظم وكان الدكتور مصحوبًا بمعالى رئيس الحكومة السيد أحمد بلافريج وسفير الجمهورية العربية المتحدة السيد أسعد محاسن ، وقد حضر المقابلة السيد أحمد بنانى مدير التشريفات والسيد عبد الكريم غلاب رئيس قسم إفريقيا وأسيا بوزارة الخارجية والسيد بومهدى رئيس القسم الثقافى بنفس الوزارة والسيد عبد الهادى التازى عن وزارة التربية الوطنية " .

ويمضى البلاغ قائلاً : "وكانت المقابلة على جانب عظيم من الحفاوة والود فقد خاطب صاحب الجلالة الزائر الكريم قائلاً : إننا نرحب فى شخصكم بعالم من أعلام الفكر العربى فى العصر الحاضر ، والمغرب متشرف بزيارتكم التى كان يتمناها منذ أمد طويل ، لمشاهدة ما يبذله من جهود فى سبل البناء والانبعاث ".

وأجاب الدكتور طه حسين : " إنى متأثر جدًا ، يا صاحب الجلالة ، بهذه المقابلة التى أنعمتم على بها ، ولى الشرف العظيم بالمثول بين يدى جلالتكم أنتم الذين قدتم معركة التحرير فى المغرب وعانيتم كثيرًا من التضحيات والمشاق فى سبل إسعاد الشعب المغربى ، والكل يعترف بالفضل العظيم الذى طوقتم به جيد العروبة بكفاحكم واستبسالكم إلى جانب الشعب المغربى الأبى " .

فعقب جلالة الملك على كلمة الدكتور قائلا : نعتبر أن كل شخص مهما كانت مرتبته ينبغى له أن يؤدى واجبه فى هذا المضمار ! وإن الشعب المغربى يذكر كذلك ما قمتم به أيضا من أعمالٍ أثناء المحنة السياسية التى اجتازها المغرب ولا تزال عالقة بأذهاننا مواقفكم ومقالاتكم فى الدفاع عن القضية المغربية مما كان له أكبر الوقع والتشجيع للأمة المغربية فى جهادها . وزيارتكم هذه ستكون لها أكبر الفائدة بالنسبة للمثقفين المغاربة الذين يتعطشون لمناهل العلم فى البلاد العربية .

وبعد ذلك دار الحديث بين جلالة الملك المعظم والدكتور طه حسين عن ظروف السفر ، وعن البرنامج الذى وُضع لزائر المغرب الكريم . ولما لاحظ جلالته أن البرنامج ربما كان مرهقًا بالنسبة للدكتور طلب جلالته من رئيس الحكومة السيد أحمد بلافريج ألا يكون فى البرنامج إجهاد وتعب على الدكتور.

وإضافةً إلى ذلك الخبر الذى عممته أجهزة الإعلام صدر بلاغ من التشريفات الملكية يقول : يعلن مدير التشريفات والأوسمة أن صاحب الجلالة الملك المعظم حفظه الله تفضل بالإنعام على معالى الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب بالقاهرة بمناسبة زيارته أعلى درجة من وسام الكفاءة الفكرية الذى خصصه صاحب الجلالة بين الأوسمة الجديدة لذوى الكفاءة من العلماء والأدباء والأطباء والفنانين ورجال الفكر ، وإن الدكتور طه حسين أول من قلد هذا الوسام العلمى السامى .

وفى الساعة السادسة من مساء نفس اليوم أقامت وزارة الشؤون الخارجية حفل شاى كبير تكريمًا لعميد الأدب العربى بحدائق الوزارة لم يحرم الدبلوماسيين

من الاستمرار فيها إلا إشفاق السيدة زوجة الدكتور على زوجها من ألا يأخذ وقته لإلقاء محاضراته حيث استمعتُ إليه يهمس فى أذن بعض المشرفين على الحفل معتذرًا ومداعبًا: اعذرونى فإن من الحب ما قتل !

فعلاً كان جمهور المثقفين على موعد مع المحاضرة الأولى للزائر الكريم التى ألقاها فى نفس اليوم ٢٦ يونيه بكلية العلوم التابعة لجامعة محمد الخامس بحضور سمو ولى عهد المملكة الأمير مولاى الحسن ، وكانت بعنوان : " الأدب العربى ومكانته بين الآداب العالمية " .

لقد غصت القاعة على سعتها بالذين كانوا فى شوق بالغ إلى السيد العميد، ومازلت أذكر جيدًا أن هذا الجمهور، على سعته وتعدد اتجاهاته ، ظل كأن على رأسه الطير كما يقولون ، الكل رجالاً ونساء يصيخ بسمعه إلى ما يقول الدكتور الذى قدمه إلى هذا الجمهور الأستاذ عبد الكريم غلاب .

لقد ابتدأ الدكتور طه حسين حديثه وأنت تشعر بأن الرجل يأخذك بأسلوبه الساحر شيئًا فشيئا ليلحق بك برفق إلى الموضوع الذى تناوله من غير أن تشعر بتعبٍ فى تتبع فقرات حديثه ولا بصعوبةٍ فى فهم لغته . وينساق بك إلى أن يصل إلى قمة النتيجة التى يتوخاها من عرضه ، فإذا أحس أنك وصلت معه إلى ما يريد أخذ بك فى العودة بتؤدة ولطف وهو يزودك فى هذه الأثناء بما يدعم أطروحته غير متكلف ولا متصنع ولا مغرب فيما يأتى به من ألفاظ سلسة مغرية ، وهكذا تشعر بأنه ماض فى اتجاه الانصراف حتى يصل إلى الدقيقة الأخيرة المحددة للكلام فيودعك وأنت تشعر بأنك عشت لحظاتٍ من الزمن فى غاية المتعة ، وكأنَّ الساعةَ ثانيةٌ ، فإذا أضفت إلى كل هذه المنهجية الأخاذة ما

حباه الله به من صوت موسيقى رخيم ، ومن احترام فائق لقواعد اللغة العربية ،واختيار جيد للمفردات الدالة التى يستعملها ، آمنت بأنك أمام معلمة جديرة بأن تكون القدوة للذين يُنشئون ويتحدثون ، وبأنك أمام رائدٍ خبير بمعارج الطرق منها الأقرب إلى الوصول ،وقد كان يذكرنى فى دعاء كان يتردد على لسان أحد مشايخنا أثناء الدرس :" اللهم ارزقنا العلم ، وارزقنا القدرة على تبليغه . "

قال الدكتور على الخصوص فى محاضراته :

" ... لقد مرت على أدبنا العربى أطوار نستطيع فيها بحق أن نقرر أن هذا الأدب كان هو الأدب العالمى الممتاز فى عصر من عصوره ، ذلك أن هذا الأدب لم يكد يخرج من جزيرة العرب حتى انتشر إنتشاراً رائعًا . ولست أعرف فى اللغات القديمة لغة بلغت ما بلغته اللغة العربية من القوة ومن السعة والانتشار ومن القدرة على السيطرة على العالم القديم فى أكثر أجزائه .

نعم كانت قبل اللغة العربية لغات قديمة أخرى انتشرت فى الشرق وسيطرت على سياسته وإدارته وثقافته ،ولكنها لم تبلغ فى أى وقت من الأوقات أعماق الشعوب الشرقية و لم تستطع أن تغير من نفوس الشرقيين ولا أن تغير من لغاتهم شيئًا وإنما فرضت نفسها سياسيًا فكانت لغة الحكام وكانت لغة الإدارة وكانت لغة الثقافة الرسمية ، وظلت الشعوب تتكلم لغاتها الخاصة . فالأمة اليونانية فرضت سيطرتها على الشرق عشرة قرون . لكن الشعوب ظلت محتفظةً بلغاتها الخاصة فكان المصريون محتفظين بالقبطية وكان السوريون وأهل الجزيرة والعراق محتفظين بالآرامية ...

وجاء الرومان بعد اليونان فلم تستطع لغتهم اللاتينية أن تنتشر فى الشـــرق بحال من الأحوال وإنما كان الحكام من الرومانيين ... وظلت الشعوب مع ذلـك محافظة على لغاتها الموروثة ... إلى أن جاءت اللغة العربية بعد الفتح الإســـلامى فانتشرت ودون أن يتخذ السلطان العربى أية قوة لفرضها ... نظرنا فإذا هـــذه اللغة تنتشر شيئا فشيئًا ... ولا تلبث أن تصبح هى اللغة العامة لكل البلاد الـــتى فتحها المسلمون فى الشرق والغرب . انتشرت بقوة القـــرآن ، وبهـــذه القـــوة وحدها استطاعت أن تكون لغة عالمية لأول مرة وبأوسع معانى هذه الكلمـــة ، لكن الأدب الجديد بهذه المرتبة هو الذى يستطيع أن يأخذ وأن يعطى ولا يكـون منعزلاً عاكفا على نفسه . يأخذ من الآداب المختلفة ما يلائم طبيعتـــه ، فـــلا يعيش منعزلا وإنما يعيش متصلا بحياة الأمم البعيدة منها ويعطيها فى نفس الوقت ما يستطيع . إن كل أدب جديرٍ بهذا الاسم يجب أن يأخذ ويعطى وأن يتـــأثر وأن يؤثر ... "

إلى آخر هذه الأفكار التى رأينا أن من الواجب أن نخصص لها ملحقا خاصاً بعد أن سجلناها من الشريط المحفوظ بالإذاعة الوطنية التى نغتنم هذه الفرصـــة لنشكرها على مساعدتها .

لقد سمعنا صاحب السمو الملكى ولى العهد يقول : إنه يعتز بأنه أمسى مـن تلامذة الدكتور طه حسين ،وقد أبى إلا أن يقيم حفـــل اســتقبال أكـــاديمى على شرف الأستاذ الكبير فى قصره الخاص بحى السويس مساء الأحد ٢٩ مـــن يونيه / ١١ من ذى الحجة، وقد كان سموه فى استقبال ضيفـــه ، وصحِبَـــه إلى المائدة التى جلس حولها رئيس الحكومة ووزير الخارجية وعدد كبير من عليـــة

الشخصيات الحكومية والدبلوماسية والأدبية بمن فيهم الأستاذ شارل أندرى جوليان عميد كلية الآداب وعدد من أعضاء (جمعية العلماء بالمغرب) الذين وصلوا إلى الرباط بمناسبة تقديم التهانى بعيد الأضحى لعام ١٣٧٧ .

وقد كان الدكتور قبل هذا ضيفًا على السيد رئيس الحكومة فى مأدبة غداء هذا اليوم أقامها على شرفه فى بيته وحضرها عدد من الشخصيات السياسية والوطنية كان من بينهم الأستاذ علال الفاسى ...

وقبل أن يغادر طه حسين الرباط حضر حفل استقبال كبير أقامه على شرفه فى فندق حسان الأستاذ أسعد محاسن سفير الجمهورية العربية المتحدة . كما نظم الدكتور عبد العزيز الأهوانى المستشار الثقافى بالسفارة ومدير المركز الثقافى المصرى فى التاسعة والنصف من نفس اليوم الأحد ٢٩ ندوة كبرى استجابة لطلب الأدباء الذى أبدوا رغبتهم فى الاتصال المباشر بالدكتور من الطلبة الناهين حيث وجهت للأستاذ عدة أسئلة حول التعريب وتيسير النحو ، وكان الدكتور يجيب عنها بصراحة أثارت إعجاب الحاضرين . الأمر الذى يعبر عنه ما تركه - رحمه الله - من آثار جد هامة حول المواضيع التى تطرق إليها والتى أصبحت محل اهتمام من المشرفين على الشؤون الثقافية ببلادنا .

وقد عالج حديث الدكتور طه حسين يوم الاثنين ٣٠ يونيه = ١٢ من ذى الحجة فى العاصمة الاقتصادية الدار البيضاء بقاعة المسرح البلدى موضوع تطور الأدب العربى فى مصر قديمًا وحديثًا حيث قدمه إلى الجمهور الأستاذ محمد الفاسى الذى نعت الدكتور " بشيخ الجماعة " .

وهكذا وبعد أن أكد أن فترة الحكم العثمانى كادت أن تأتى على معـــالم الأدب العربى فى مصر بحكم أنهم أى العثمانيين قطعوا كل صلة بينها وبين العالم الخارجى شرقا وغربا ، أشاد بما قامت به دولة المماليك من خلال الاتفاقيـــات التى أبرمتها ، والآثار التى تركتها بعد أن كان التتر أتوا على كل معالم الحضـارة العربية فى العراق،وهنا ذكر ما خلفه النويرى والعمرى والقلقشندى وابن منظور وابن حجر والسيوطى .

ويعتبر الدكتور طه حسين أنَّ طرق الفرنسيين أبواب مصر أيقظ المصريـين وخاصة عندما ظهرت المطبعة وانتشرت بعض التجــارب العلميــة . وأخــذ المصريون يرسلون أبناءهم إلى الخارج وأخذ الأجانب يترددون علــى مصــر ، وبرز على الساحة تياران : التيار القديم والتيار الجديد .

وهنا طمحت النفوس إلى الاستقلال ، وسمعنا عــن البــارودى وحــافظ وشوقى وظهر النثر إلى جانب الشعر ، وشاهدنا أسبوعية " مصباح الشـــرق " وسمعنا بالمنفلوطى وآثاره .

ويبدو أن طه حسين وجد فى الفرق بين سلوك القصر الملكـــى فى مصــر وسلوكه فى المغرب ، مما يتصل بالتواطؤ مع الاستعمار ، وجد فى ذلك ما يــبرر لمزه للنظام الملكى فى مصر . ومن هنا انتقل إلى دور الكتاب فى العمـــل علــى التخلص من الاستعمار .

وفى هذا الصدد عرض لظهور حركة التمثيل بمصر .وهنا قدم توفيق الحكيم للمغاربة كما قدم إليهم عددا من الكتاب من أمثال نجيب محفوظ ...

وكان المهم فى هذا الحديث أنه يدعو المغاربة إلى المشاركة فى ذلك الجهد من أجل إظهار الكنوز العربية . ومن المهم أن نقف مرة أخرى على التأكيد على ضرورة عدم الاكتفاء بذكر القدماء . إننا نريد - يقول طه حسين - أن نعرف ما عند الغرب أيضا ونجمع ما نعرفه عن قدمائنا وأن نكون لأنفسنا شخصيتنا الجديدة الحرة المستقلة. فلا ينبغى أن نورث أبناءنا ما ورثناه فحسب وإنما ينبغى أن نورث أبناءنا ما ورثناه وما أنتجناه نحن ... " على ما سنقرأ تفاصيله من الملاحق .

وإثر هذه المحاضرة أقيم حفل حاشد على شرف الدكتور طه حسين فى بيت الأستاذ الحلو وقد غص المنزل بالحاضرين ، وغابت عنه زوجته على ما نقرؤه فى مذكراتها ...

وكان من طرائف ما جرى فى فاس يوم الأربعاء الثانى من يوليه ١٩٥٨ م أن الدكتور عزم على زيارة جامعة القرويين التى تقع فى قلب المدينة القديمة والتى نعلم عن صلتها بالأزهر فى ذاكرة طه حسين ، وقد طلب إلىَّ أن أختار أقرب طريق إلى الجامع واستكتمنى رغبته حتى لا تمنعه صاحبتُه من النزول بحجة الإشفاق عليه ، لكن الخبر وصلها فطلبت إلىَّ أن أرافقها لتأخذ فكرة عن المسافة. الأمر الذى جعلها ترفض أن يقوم بمثل هذه المغامرة !

وعبثًا حاولنا إقناع السيدة بسهولة الطريق بل وباعتمادنا على السيارة الخاصة التى جعلها الملك تحت تصرفه ، فقد أصرت على رأيها ، وهكذا تحولت الزيارة إلى أحد فروع جامعة القرويين الذى كان يحمل اسم (معهد الزربطانة) حيث أقيم فى حدائقه الواسعة حفل استقبال كبير حضره جميع علماء جامعة

القرويين ... واستجابة لرغبة الدكتور شارك فى الاستقبال جوق الآلة الأندلسية التى كان الأستاذ يطرب لسماع إيقاع إحدى نوباتها : (بطايحى رصْد الذيل).

وقد تقدم بهذه المناسبة عدد من الخطباء الذين رحبوا بالزائر الكريم وكان منهم الشاعر الكبير الأستاذ محمد الحلوي الذى تقدم بقصيدة رائعة فى نحو أربعين بيتا ، طرب لها الدكتور طه حسين ورجعت به إلى عهود الشعر الزاهرة على حد تعبيره ، جاء فى أولها على ما سنرى فى الملاحق :

حَقٌّ على الشِّعْرِ أَنْ يُهْدِي عَرائِسَهُ تَحِيَّةً لِعَمِيدِ الشِّعْرِ وَالأَدَبِ
هَفَا إِلى حِضْنِكَ الدَّافِي لِتُنْعِشَهُ مِثْلَ اليتيمِ الَّذِى يَهْفُو لِحضْنِ أَبِ!

وقد كان من حسن حظى ونحن بمدينة فاس ، وبالذات فى فندق زالاغ ، أن ألازم الدكتور طه حسين أكثر مما لازمته فى الرباط أو الدار البيضاء ، لقد كنت على صلة ولمدة تزيد على عشر سنوات بزميل لى فى الدراسة كان كفيفًا: العربى الرهونى ، فكنت أعيش مع نفس الحركات والمدركات .سألنى -وكان يعرف أننى خريج جامعة القرويين - عن نصيبى من اللغة الفرنسية ؟ وهل سافرت خارج المغرب ؟ وقال لى مرة ألا تفكر فى الالتحاق بالجامعة العصرية ؟ وقد استغربت من سؤاله هذا أول الأمر، لاسيما وقد كان يعلم أننى أب لخمسة أطفال وأننى أعمل رئيسًا للقسم الثقافى بوزارة التربية الوطنية !! وبين الفينة والأخرى ، كأنه كان ينسى ليرجع ويتحدث عن الجامعة العصرية على ما سنرى .

ولقد كان مما أثار انتباه الدكتور طه حسين - ونحن نتتبع تساؤلاته - أنه أحيانًا يدخل فى حوار مع بعض الذين يسلمون عليه ، وقد كان يستغرب من

أن معظمهم كان بالسجن أيام الاستعمار .وسنرى أن الدكتـور يكتـب : إن الذى يزور المغرب الأقصى بعد استقلاله إنما يزور وطنًا من أوطان البطولة حقًا، فمن أعسر الأشياء وأشقها أن تتحدث إلى رجلٍ من رجال الحكم أو من رجال الثقافة أو من عامة الناس إلا عرفت أن له بالسجن عهدًا . !

ولقد كان موعد الجمهور مع المحاضرة الثالثة فى اليوم الموالى ، وقد اختيرت لها أكبر قاعة فى المدينة الجديدة : (سينما لامبير) حيث قدمه الأستاذ محمـد الفاسى ، وقد كان موضوعها يتناول مشاكل الأدب العربى بعد الإسلام .

لقد خصص الحصة الأولى من محاضرته بفاس لتحية أهل فـاس والإشـادة بأمجاد القرويين ودورها فى الحفاظ على التراث الإسلامى والهوية العربية لبـلاد المغرب . " إن لمدينة فاس فى قلوبنا مكانة أى مكانة فهى موئل الحضارة وموئـل العلم ، وهى قلعة الإسلام الحصينة ، من أجل ذلـك لا نذكرهـا إلا اشـتقنا لزيارتها ولا نذكرها إلا ذكرنا جامعة القرويين وما يتصل بها ... ونحن نقـدر فى أعماق نفوسنا أن جامعة القرويين هى أقدم الجامعات الإسـلامية وعسـى أن تكون أقدم جامعات الأرض كلها .

وقبل هذه الكلمات التى كانت بمثابة الوسام الذى حلى به صدر العاصمـة العلمية للمغرب ، تفضل فشكر الاستقبال الحميم الذى خصصه علماء فـاس لشخصه . " وإننى على ما سمعت من نثر رائع وشعر بارع بالأمس أذكر ما قيل قديما : " إن أعذب الشعر أكذبه " وإنى لأعتذر لشاعرنا العظيم من ذكر هـذه الجملة القديمة .

وبعد هذا تصدى الدكتور للموضوع الذي قدمه لرجال الفكر بالعاصمة العلمية والذى كان فعلا مثيرا وممتعا وأصيلا فى الوقت ذاته :

هناك نظرية تقول : إن ظهور الإسلام أسكت الشعراء حينا من الدهر لأن القرآن بهر الناس ببلاغته وبيانه الرائع ، وكان ابن خلدون أول من قررها فى مقدمته وتبعه الذين أرّخوا الآداب العربية .وعن مصداقية هذه المقولة تحدث الدكتور بصراحته المعهودة مقترحا على العلماء استعمال أفكارهم حول هذه النظرية وأمثالها . هذه المشكلة - يقول طه حسين - أحب أن أثيرها أمامكم . وإنى أرجو أن تتفكروا فيها وما أشك فيما بينى وبين نفسي فى أن هذه النظرية ليست نظرية صحيحة بحال من الأحوال .

وهناك مشكلة أخرى تحتاج إلى كثير من التفكير - نلاحظ أن الحجاز - وهو موطن الوحى أصبح فى عصر بنى أمية موطن الغزل والغناء والموسيقا فملذا كان وراء هذا ؟ وهنا أيضا نصح الدكتور يفتح عيون الحاضرين على أفكار فى منتهى الروعة والجرأة طالبا من الأدباء أن يستعملوا أفكارهم فى الوصول إلى الحقيقة ... فليس يكفى- يقول الدكتور - أن نقرأ ما يكتب فى الكتب ونقرره ونعيده على طلبتنا كما قرأناه ونصبح كأننا الأداة التى تحكى ما يسجل لها . وإنما وهبنا الله عقولا لنفكر بها ، ووهبنا أذواقا لنقيس بها الجيد والردىء . وسترون عندما تعيدون النظر فى تاريخ الأدب العربى القديم فى القرنين الأول والثانى بنوع خاص ، سترون أنكم أمام حقائق كثيرة إنّ ما نعرفه عن تاريخنا الأدبى قليل جدا بالمقارنة مع ما نجهله .

أنا أحب – يختم الدكتور – أن أثير المشكلات وأن أثير القلق من حولى . إنى لأرجو ألا تقرؤوا كتاب الأغانى إلا لتقرؤوا ليسَ غير ، ولا تتخذوه وحده مصدرا للتاريخ الأدبى .

لقد كان طه حسين يقصد إلى إعطاء مثل هذه المحاضرة فى مدينة تحتضن جامعة القرويين شقيقة الأزهر ، جامعة تعيش على النصوص ، وبالنصوص ، وفى أحضان النصوص ، يقصد إلى أن يحرر الناس من أن يصبحوا عبيدا للنص بدون أن يستعملوا فكرهم جيدا فى فهم النص وفى البحث عما قد يوجد من مصادر ومراجع تكشف عن مصادر النص وهدفه ، إن كل الناس مخاطبون باستعمال عقولهم واستخدام مواهبهم دون تقليد ولا متابعة عمياء .وسنرى فى الملاحق تفصيلا عن موضوع المحاضرة .

وقد أبى محبوه بفاس إلا أن يأخذوه إلى مصطاف إيموزار الذى لا يبعد عن المدينة إلا قليلا حيث استمتع هناك بقعدات ندية حيث كانت أيدى الترحاب والتكريم تتهاداه من زاوية إلى أخرى ...

وكانت زيارته لمدينة فاس مناسبة للإعلان عن قبول الدكتور للعرض الذى التمسته منه الجامعة المغربية : أن يلقى عدة محاضرات فى السنة الأكاديمية المقبلة. وفى طريقه إلى تطوان يوم السبت ٥ يوليه مر على مدينة القصر الكبير وهنا شعر بغياب أحد الرفاق فى الرحلة وهو الزميل الراحل الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، وسرعان ما حضر الدكتور الأهوانى فأنشده طه حسين هذا البيت الذى ارتجله :

اِسْأَلْ عَنِ القَصْرِ الكَبِيرِ وَسِرِّهِ تَجِدِ الجوَابَ لَدَى الفَتَى الأَهْوَانِى !

وفى تطوان مساء الأحد ٦ يوليه الموافق ١٨ من ذى الحجة بقاعة إسبانيول ألقى آخر محاضرة له ، وقد قدمه الأستاذ محمد بن تاوت التطوانى رحمه الله .

لقد أثار الدكتور طه حسين هذه المرة المشاكل التى تتصل بالأدب العربى عمومًا كأزمة القراء التى عزاها إلى تعلق الناس بأمور الحياة . مركزًا على السينما ودورها فى جلب الناس إليها على نحو المقهى التى تحشر الناس إليها . وقد تخلص الأستاذ العميد إلى تصنيف الأدب إلى درجتين اثنتين فإما أن يكتب للكثرة وإما أن يكتب للقلة .

وقد وقف الدكتور مقارنًا بين الأدب القديم مبديًا ما كان يتمتع به الأدباء القدامى من تشجيع وعطف وتقدير .

وينتقل الدكتور طه حسين إلى الموضوع الذى ما انفك يثيره مع الشباب قائلا : إن الشباب العربى الذى أخذ يكتسب عقلية القرن العشرين يجد الصغوبة الكبيرة فى مسايرة الطريقة المتبعة فى تعليم اللغة العربية وآدابها ، فإذا لم تصلح هذه اللغة وييسر هذا النحو فإننا نجد أنفسنا مسؤولين عن إعراض الشباب عن الأدب العربى بل ونعتبر محرضين لهم على ذلك ! وتأتى بعد هذا مشكلة الكتابة العربية التى تجعل الفهم قبل القراءة بدلا من أن تسبق القراءة الفهم نظرًا لعوامل الشكل والإعراب، وقد أشار فى خطابه إلى القاضى المغربى ابن مَضاء الذى دعا إلى إصلاح النحو ... والذى كان أستاذنا شوقى ضيف خصص له بحثًا هامًّا منذ عام ١٩٩٧ .. إلى آخر الأفكار الجريئة التى أدلى بها والتى تركت لها أثرًا كبيرا فى الطبقة الواعية التى كانت تصغيِ باهتمام إلى الأستاذ الجليل على ما نذكره فى الملاحق .

وقد كان من المفروض أن يتجه الدكتور طه حسين إلى مدينة مراكش التى كان جمهورها ينتظره بفارغ الصبر إلا أن ارتفاع درجة الحرارة بعاصمة الجنوب ،وطول المسافة التى كانت تفصل بين الرباط ومراكش ، وعدم اشتمال السيارات آنذاك على المكيف جعلت أعضاء الهيئة المنظمة يذكرون وصية جلالة الملك محمد الخامس أن يشفقوا على الزائر الكريم حتى لا يرهقوه ولا يتعبوه ، الأمر الذى أذعن إليه أدباء مدينة مراكش على مضض .. وإلى الآن يذكرون المناسبة ويرددن قول الشاعر :

كَمَا أَبْرَقَتْ قَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ   فَلَمَّا رَأَوْهَا أَقْشَعَتْ وَتَجلَّتِ !

لقد ظهرت عبقرية الرجل أولا فى توزيع المواضيع على العواصم المغربية المذكورة فخاطب كل عاصمة بما كان ينبغى أن تخاطب به ، فهو فى الرباط غيره فى فاس ، وهو فى البيضاء غيره فى تطوان .

أريد أن أخلص إلى القول : إن زيارة الدكتور طه حسين لم تكن زيارة سياحة أو راحة ولكنها كانت زيارة عمل وحركة متوالية، فمن محاضرة إلى مناظرة إلى استجواب، وقد كان الدكتور خلال كل ذلك مثل الرجل الذى لا يتعب ولا يمل ، كان يشعر بأنه يؤدى رسالة مقدسة لقوم ينتظرون منه هذه الرسالة ، قمة وقاعدة ، شبابًا وشيوخًا، ذكورًا وإناثًا ، فلم يكن هناك حديث إلا عنه وعن فكره النير وقلبه المبصر وحسه المرهف .

كنا نحس أنه يعطى كل ما عنده وبكل إخلاص ، وكنا ندرك أن الناس كانوا يتلقون أطاريحه على أنها أطاريح سليمة مسلمة ، ولذلك كانوا يتوقون إلى زيارة لاحقة استجابة لرغبة مريديه .

وإذا جاز لى أن أتحدث عن أثر هذه الزيارة التاريخية فى نفسى فإننى أذكر بحق أنها كانت بالنسبة إلى منعطفا هاما فى حياتى ، فقد أقنعنا الرجل بأن القاعدة العلمية التى اعتمدنا عليها فى جامعة القرويين ، بالرغم من أنها القاعدة الأساس ، لكنها بحاجة إلى تأثيث ، ولابد من الانفتاح على الجامعة العصرية التى تكون بمثابة النافذة المشرعة على العالم الآخر .

وأعترف أننى من هنا أخذت، أتوق إلى الالتحاق بجامعة محمد الخامس رغم اعتراض بعض زملائى بجامعة القرويين الذين كانوا يرون فى ذلك ، تنقيصًا من قدر القرويين !! وقد شجعنى وجود ثلة من الأساتذة المصريين الأجلاء بالرباط من أمثال الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال الذى وجد فى مساهمتى بالمؤتمر الثالث للآثار العربية المنعقد بفاس فى نوفبر ١٩٥٩م: حول (الحروف المنقوشة بجامع القرويين) ، وجد فيها ما يبررذلك [١] وأمثال الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادى الذى فتح لى قلبه .

وإن نسيت فلا أنسى استقبال الدكتور طه حسين لنا فى يناير ١٩٦١م بمكتبته الحافلة المرتبة فى بيته (رامتان) ، عندما كنت بصحبة الأستاذ محمد الفاسى بمناسبة اجتماع اللجنة الثقافية للجامعة العربية فى دورتها الرابعة عشرة التى أذكر أن فى صدر الذين حضروها الدكتور أحمد زكى والدكتور أحمد حسن الزيات . كان الدكتور طه حسين وقتها نائبا لرئيس المجمع أحمد لطفى السيد .

---

[١] جامعة الدول العربية : المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية ، القاهرة ١٩٦١م .

لم أنس ارتياح الدكتور من سماع الأستاذ الفاسى رحمه الله يخبره بالتحاقى بجامعة محمد الخامس وتشجيعى على رسالتى لنيل دبلوم الدراسات العليا [1] التى كانت مفتاحى للالتحاق بجامعة الإسكندرية التى كان لها تاريخ بارز معروف مع الدكتور طه حسين [2] .

ذكرت كل هذا الحديث اعترافا بالجميل الذى أسدته لبلادنا زيارة الدكتور طه حسين التى، كما قلت منذ البداية ، لم تكن زيارة نزهة بقدر ما كانت رحلة علمية ، دامت أسبوعين وعملت على صحوة الطبقة المثقفة وتوعيتها بماضيها وتنبيهها إلى ضرورة الأخذ بمعالم الطريق الذى يضمن لها الحفاظ على ذلك الماضى حتى تواكب الركب العالمى .

لقد مرت أربعون سنة كاملة على سماعى محاضرات الدكتور طه حسين وما تزال إلى الآن ترن فى أذنى بوقع جرسها وقوة دلالتها وأناقة كلماتها . لقد أخذتنى إليه أخذا لم أستطع أن أحمى نفسى من التمثل بها والاسترشاد بأسلوبها ...

وإنى لأغتنم هذه الفرصة لتقديم التوصية بتعميم المحاضرات المسجلة بصوته على المؤسسات الجامعية باعتبار تلك المحاضرات تراثا مسموعًا يعلّم الناس كيف بمخارج الحروف ينطقون ، ولأفكارهم يرتبون ولألفاظهم ينمقون ، ولمستمعيهم يحمِضون[3] ويطرفون ، وبانصرافهم يشعرون ويودعون !

د. عبد الهادى التازي

---

[1] طبعت هذه الرسالة التى كانت حول تاريخ ابن صاحب الصلاة بإشراف الدكتور أحمد مختار العبادى عام ١٩٦٣م ثلاث مرات ١٩٦٤م بيروت - ١٩٧٩م بغداد -١٩٨٧م بيروت .

[2] هنا سعدت بنيل درجة الدكتوراه عام ١٩٧١م عن رسالتى حول تاريخ جامع القرويين بإشراف د. العبادى ، وقد طبعت فى بيروت ١٩٧٢م ، وقد كنت أشعر بالغبطة وأنا أرتدى (روب) جامعة الإسكندرية التى كان الدكتور يرتادها.

[3] يُحْمِضُون : يُفيضون فيما يؤنسهم من الحديث والكلام .

الملاحـق

الملحق الأول : محاضرة الرباط الخميس ٨ من ذى الحجة ١٣٧٧هـ الموافق ٢٦ من يونيه ١٩٥٨م .

الملحق الثانى : محاضرة الدار البيضاء الاثنين ١٢ من ذى الحجة الموافق ٣٠ يونيه ١٩٥٨م .

الملحق الثالث : محاضرة فاس الخميس ١٥ من ذى الحجة ١٣٧٧هـ الموافق ٣ يوليه ١٩٥٨م .

الملحق الرابع : محاضرة تطوان الأحد ١٨ من ذى الحجة ١٣٧٧هـ الموافق ٦ يوليه ١٩٥٨م .

الملحق الخامس : قصيدة الشاعر الحلوي بفاس يوم ١٤ من ذى الحجة ١٣٧٧هـ الموافق ٢ يوليه ١٩٥٨م .

الملحق السادس : استجوابه مع مجلة الإذاعة الوطنية العدد الأول يوليه ١٩٥٨م.

الملحق السابع : مقال للدكتور نشرته جريدة الجمهورية فى عددها ليوم ١٩٥٨/٧/٢٩م .

الملحق الثامن : مذكرات بقلم السيدة حرمه عن زيارته للمغرب .

الملحق التاسع : معرض لبعض اللقطات والقصاصات .

تنبيه :

لم تفتنى استشارة ما كتب بالمشرق ، وبخاصة مجلة الهلال ، العدد الخاص بالدكتور فبراير ١٩٦٦م - ١٣٨٥هـ ، ومجلة (الحديث) عدد يوليه ١٩٥٨م، وكذلك كتاب حول طه حسين تأليف الدكتور حمدى السكوت والدكتور مارسدن جونز ، طبعة دار الكتاب المصرى اللبنانى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، وأخيرًا المحاضرة التى ألقاها الأستاذ الدكتور شوقى ضيف رئيس مجمع اللغة العربية مساء يوم الاثنين ١٥ من ذى القعدة ١٤١٧هـ الموافق ١٤ من مارس ١٩٩٧م تحت عنوان (طه حسين المجمعي) بقاعة الاجتماعات الكبرى بدار المجمع بالزمالك ...

الملحق الأول

نص محاضرة الرباط للدكتور طه حسين

في موضوع

"الأدب العربي ومكانته بين الآداب العالمية"

سيدى صاحب السمو الملكى ، سادتى ،

أحب قبل كل شيء أن أؤدى مهمةً ليس شيء أحب إلى من أدائها ، وهى أن أحمل إلى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم محمد الخامس (تصفيق) وإلى صاحب السمو الملكى الأمير الحسن ولى عهد الدولة المغربية (تصفيق) وإلى الشعب المغربى كله تحية ملؤها الود الصادق والحب العميق والإجلال والإكبار وتقدير الجهد العنيف الخصب الذى بذل فى تحقيق الاستقلال المغربى ، وهذه التحية أؤديها إلى المغرب: إلى جلالة مليكه وإلى ولي عهده وشعبه الكريم وعن الجمهورية العربية المتحدة كلها (تصفيق) : من رئيسها جمال عبد الناصر (تصفيق) عن حكومتها وعن شعبها العربى الذى إنما يحيا بالعروبة وللعروبة ولإعزاز العروبة فى أى مكان من أماكنها (تصفيق) ، وهذه التحية التى تصدر من أعماق القلب العربى فى المشرق إلى القلب العربى فى المغرب ، ليست تحية تؤدى بأطراف الألسنة ، وإنما اللسان فيها مترجم عن القلوب ، وإنى لأرجو أن تبلغ هذه التحية أسماعكم ثم لا تستقر فيها وإنما تستقر فى أعماق قلوبكم ودخائل ضمائركم وأن تشعروا بأن الجمهورية العربية المتحدة إنما تحييكم تحية الصديق المخلص للصديق المخلص .

أما بعد فإنى أعتذر من أن أتحدث إليكم حديثًا لست أدرى أيروقكم أم لا يروقكم ، ذلكم لأنى لا أتحرى ، حين أتحدث ، إرضاء الذين يسمعوننى ، بمقدار ما أتحرى إشعارهم بما يجب عليهم للأدب العربى وللأمة العربية كلها ،وإذا لم يرقكم بعض ما سأقوله فى هذا الحديث فمعذرتى إليكم هى أننى لست من الذين يقنعون بالقليل فى كل ما يتصل بالحياة العقلية ، فقد أكون من أنصار

القناعة بالقليل فيما يتيح الله لى من أسباب الحياة ، أما فيما أطمح إليه فى حياتنا العقلية فإنى لا أرضى أبدا ولا أطمئن مطلقا وإنما أنا قلق دائما ومثير للقلق حيثما كنت . وأنا حريص أشد الحرص ، على أن تشعر الأمة العربية كلها بأنها مهما تحقق من نهضة ومهما تبلغ من رقي في حياتها العقلية فإنها ستظل دائما بعيدة عما ينبغى لها من النهضة الصحيحة والرقى المؤكد والوصول إلى المثل الأعلى فى تقوية الحضارة وتنميتها وإغناء العالم الإنسانى كله ومشاركته فيما ينبغى أن تكون عليه الحياة الإنسانية من تقدم ورقى وازدهار .

وأريد أن أحدثكم الليلة عن " الأدب العربى وعن مكانته بين الآداب العالمية " . وهو موضوع -كما ترون- يشعر بشىء كثير من وجوب الاحتياط فى القول . فالعالم الآن بما بلغ من التقدم ، وبما وصل إليه من الرقى ، وبما انتهى إليه من هذا التطور الغريب ، وبما وصلت إليه الاختراعات الحديثة ، هذا العالم عندما ننظر إليه ، وننظر إلى ما وصلنا نحن إليه فى بلادنا العربية ، نشعر بالمسافة البعيدة التى تفصل بيننا وبين ما نحب أن نكون . والشىء الذى يعزينا ولكنه لا ينبغى أن ينسينا واجبنا ، هو أن أدبنا العربى قد مرت عليه أطوار ، نستطيع فيها، بحق عندما نتحدث عنها ، أن نقرر أن هذا الأدب كان هو الأدب العالمى الممتاز فى عصر من عصوره . ذلك لأن هذا الأدب العربى لم يكد يخرج من جزيرة العرب بعد ظهور الإسلام وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم حتى انتشر انتشارا رائعا وخطيرا حقا .

ولست أعرف فى اللغات القديمة لغة بلغت ما بلغته اللغة العربية من القوة والأيد ومن السعة والانتشار ومن القدرة على السيطرة على العالم القديم فى

أكثر أجزائه، وقد كانت قبل اللغة العربية لغات قديمة أخرى انتشرت فى الشرق وسيطرت على سياسته وإدارته وثقافته ، ولكنها لم تبلغ فى أى وقت من الأوقات أعماق الشعوب الشرقية ، و لم تستطع أن تغير من نفوس الشرقيين ولا أن تغير من لغاتهم شيئا، وإنما فرضت نفسها هذا الفرض السياسى المعروف فكانت لغة الحكام ، وكانت لعة الإدارة ، وكانت لغة الثقافة الرسمية ، وظلت الشعوب مع ذلك تتكلم لغاتها الخاصة ، وتتوارث آدابها الخاصة ، لم تغير لغتها، و لم تتخذ هذه اللغات القديمة المسيطرة لغات لها . فالأمة اليونانية فرضت لغتها على الشرق عشرة قرون ، منذ عهد الإسكندر إلى الفتوح العربية . وكان الحكام فى أول أمرهم من اليونانيين ، وكانت إدارة البلاد الشرقية ، ولا سيما مصر والشام وما إليها ، كانت الإدارة فيها يونانية ، وكانت اللغة الإدارية والسياسية هى اللغة اليونانية ، وكانت لغة الثقافة الرسمية فى المدارس وفى المعاهد وفى الأديرة – بعد انتشار المسيحية – هى اللغة اليونانية . ولكن الشعوب التى كانت تسكن هذه البلاد الشرقية ظلت محتفظة بلغاتها الخاصة . فكان المصريون محتفظين بلغتهم القبطية وكان السوريون وأهل الجزيرة والعراق محتفظين بلغاتهم السامية الآرامية وما يتفرع منها ، و لم تستطع هذه اللغة اليونانية أن تؤثر فى هذه اللغات ولا أن تحول الشعوب عن لغاتها بحال من الأحوال .

وجاء الرومان بعد اليونان ، ولغتهم اللاتينية لم تستطع أن تنتشر فى الشرق بحال من الأحوال ، وإنما كان الحكام من الرومانيين ، وكانت لغة الإدارة والسياسة والثقافة هى اللغة اللاتينية ، وظلت الشعوب مع ذلك محافظة على لغاتها الموروثة ، وعلى آدابها الموروثة ، وعلى تقاليدها كلها ، إلى أن جاءت

اللغة العربية بعد الفتح الإسلامى ، ودون أن يتخذ السلطان العـــربى أى قــوة لفرض هذه اللغة ، ودون أن تتخذ الحكومات العربية على اختلافها أى إجــراء لحمل الشعوب على أن تتكلم اللغة العربية ، ننظر ، فإذا هذه اللغة العربية تنتشر شيئا فشيئا ، ولكنها تنتشر ، على ذلك – فى سرعة مدهشـــة، ولا تلبـــث أن تصبح هى اللغة العامة لكل البلاد التى فتحها المسلمون ، فى شـــــرقي الدولـــة الإسلامية وغربيها .

فى شرقي الدولة الإسلامية : فى بلاد إيران ، وفى جزء من بلاد الهند كـــل هذا القسم كان يتكلم اللغة العربية ويكتب بها ، ويحاول أن يغالب العرب عليها .وفى المغرب ، وفى الشام وفى مصر وشمال إفريقية ، وفى الأندلس كذلك غلبت اللغة العربية كل اللغات التى كانت منتشرة فى كل هذه البلاد ، وأصبحت هـــى لغة الحديث ، وهى لغة الثقافة ولغة الدين .

ولأجل أن تتبينوا أن هذا لم يأت بقوة الحكومة ولا بتدخـــل الســـلطان ، أحب أن أذكركم بمثل بسيط جدًا ، وهو أنه فى القرن الثالث ، فى مصر ، كان كثير من القضاة يتعلمون اللغة القبطية ، ليستطيعوا أن يفـــــهموا الخصـــوم إذا اختصموا إليهم وأن يقضوا بينهم . هذا يعطيكم فكرة واضحة عـــــن موقـــف الحكومة ، وموقف السلطان بالقياس إلى انتشار اللغة العربية . فاللغة العربية قـــد انتشرت وحدها بقوتها الخاصة ، وبقوة الإسلام وقوة القرآن الكريم . بهذه القوة وحدها استطاعت اللغة العربية أن تكون لغة عالميـــــة لأول مـــرة فى التـــاريخ الإنسانى، لغة عالمية بأوسع معانى هذه الكلمة ، يتكلمها الفرس ويتكلمها جـــزء عير قليل من الهند وتتكلمها بلاد الشرق العربى الآن كلها ويتكلمـــها المغـــرب

وشمال إفريقيا وتتكلمها الأندلس أيضا ، هذه اللغة أصبحت عالمية بنفسها دون أن تعمل الحكومة شيئا لذلك ، بنفسها من جهة ، وبقوة الإسلام والقرآن من جهة أخرى .

ولأول مرة نجد فى التاريخ لغة تنتشر إلى هذا الحد ، فكما قلت لكم قد انتشرت اليونانية فى جميع البلاد الشرقية ، ولكنها لم تصل إلى أعماق الشعوب ، ولم تغير لغة من اللغات التى كانت قائمة فى تلك الأيام ، فى بلاد الشرق . ولكن اللغة العربية غلبت كل هذه اللغات ، غلبتها ، وتعمقت شعوبَها ، وصلت إلى أعماق الشعوب ، وحولت الألسنة عن اللغات القديمة الموروثة إلى هذه اللغة نفسها، لغة العرب، لغة القرآن الكريم .

والرومانيون استطاعوا أن ينشروا لاتينيتهم فى المغرب ، فى المغرب الأوروبى: فى فرنسا وفى بريطانيا العظمى وفى إسبانيا ، وحاولوا أن يجعلوها لغة منتشرة فى شمال إفريقيا ، فلم يفلحوا إلا قليلا جدًا .

ولكن اللغة العربية استطاعت أن تقهر اليونانية فى الشرق ، وأن تقهر اللغات الشعبية التى كانت منتشرة فى هذه البلاد الشرقية ، وأن تقهر اللغة الفارسية نفسها ، ثم أن تقهر اللاتينية فى المغرب العربى وفى الأندلس ، وأن تصبح هى اللغة العالمية التى يتكلمها الناس فى الشرق والغرب جميعا .

هذه اللغة منذ تم لها هذا الانتشار ، لم تكن لغة حديث فحسب ، ولكنها كانت لغة حديث ، ولغة سياسة ، ولغة إدارة، ولغة الدين . وكانت فى الوقت نفسه لغة التفكير والإنتاج الأدبى والعقلى ، وفى أقل من قرنين كانت هذه اللغة قد استطاعت أن تسيغ كل الثقافات التى كانت معروفة فى العصور القديمة :

أساغت ثقافة اليونان ، على سعتها وعلى صعوبتها وعلى عمقها ، وأساغت فلسفتهم وعلومهم وطبهم وفنونهم العملية أيضا ، وأساغت ثقافة الفرس ، وثقافة الهند ، وأساغت بعد ذلك الثقافات التى كانت متوارثة بين الأمم السامية، الثقافات التى نشأت عن التقاء الساميين بالأمم المختلفة ، والتى نشأت عن توارث التوراة وتوارث الإنجيل بين تلك الأمم المسيحية فى هذه البلاد الشرقية والمغربية . كل هذه الثقافات استطاعت اللغة العربية أن تسيغها وأن تتمثلها وأن تجعلها ثقافة عربية . وبعد ذلك جاءت المعجزة الكبرى ، وهى أن هذه اللغة التى انتشرت بهذه الطريقة المدهشة ، والتى أساغت كل هذه الثقافات بهذه الطريقة المدهشة أيضا ، أنشأت أمة جديدة ، هذه الأمة الجديدة قوامها اللغة العربية والدين الإسلامى عند الكثرة ، والمسيحية والإسرائيلية عند القلة . وكل هذه الأمم امتزجت والتأمت وأصبحت أمة واحدة ، هى الأمة الإسلامية العربية، وجعلت عناصرها المختلفة تتعاون على إنشاء هذه الحضارة الإسلامية العليا ، التى لا أعرف أن حضارة أخرى قد سبقتها فى عالميتها وفى انتشارها . (سعال) .

فلست أعرف حضارة قبل الحضارة الإسلامية استطاعت أن تنتشر من الأندلس إلى أعماق الهند ، وإنما الحضارة التى انتشرت هذا الانتشار الغريب لأول مرة فى تاريخ العالم، هى هذه الحضارة الإسلامية .

فى تلك الأيام ، نستطيع أن نقول إن أدبنا كان هو الأدب العربى الممتاز حقًا. وهذا الأدب العالمى الذى لم يكن أدب يساميه فى وقته ، سبقته آداب أخرى قديمة : سبقته الآداب اليونانية التى مازالت الإنسانية تعيش عليها إلى الآن ، ولكن

هذه الآداب اليونانية استطاع العالم الإسلامى ، بفضل اللغة العربيـــة ومرونتـــها وسعتها ، استطاع العالم العربى أن يسيغها وأن يحول هذا الأدب اليونانى القـديم أو على الأقل الناحية الفلسفية منه إلى فلسفة عربية، نقلت هذه الفلسفة إلى العربيـــة واستطاع العرب أن يسيغوها وأن يضيفوا إليها من عند أنفسهم وأن ينموهـــــا ، وسترون كيف استطاعوا أن ينشروها فى أقطار العالم كلـــه،فى أقطـار العـالم الإسلامى والعالم المسيحى،فى أوروبا أيضا.

كان هذا الأدب إذن عالميا ، والأدب الجديد بهذا الاسم هو الذى يستطيع أن يأخذ وأن يعطى : يأخذ من الآداب المختلفة ، يتلقى كل ما يمكن أن ينفعـــه وأن يلائم طبيعته ، فهو لا يعيش معتزلا وإنما يعيش متصلا بحياة أمتـــه أولا ، وبحيـــاة الأمم البعيدة الأجنبية ثانيا، يأخذ منها ما استطاع ويعطيها فى الوقت نفســه مـــا يستطيع ، وأنا أريد أن أبين لكم أن أدبنا فى هذه العصور القديمة كـــان هـــذا الأدب العالمى الذى كان يأخذ ويعطى، والذى أخذ حتى أنشأ حضارة جديدة ، وأعطى حتى أتاح للأوروبيين نهضتهم الأولى. فبفضـــل المغـــرب ، وبفضـــل الأندلس، استطاع الأدب العربى والعلم العربى أن يصلا إلى أعمـــاق أوروبـــا ،وترجم هذا الأدب إلى اللاتينية ، نقله الأوروبيون إلى لاتينيتهم التي كانت لغـــة العلم والثقافة فى تلك الأيام فى الغرب الأوروبى ، ترجم إلى اللاتينية وأصبـــح أساسا للنهضة الأوروبية الأولى التى كانت فى القرن الثاني عشر والقرن الثـــالث عشر والقرن الرابع عشر ، وكذلك استطاع هذا الأدب أن يأخذ من اليونـــانيين في الشرق وأن يأخذ من الفرس والهند ، وأن يأخذ من الأمـــم الشـــرقية ، وأن يأخذ من اللاتينيين فى الغرب ، فكان المغاربة هنا وفى الأندلس يترجمون من اللغة

اللاتينية إلى اللغة العربية، كما أن المشارقة كانوا يترجمون من اللغات اليونانية إلى اللغة العربية ومن اللغة الفارسية والهندية أيضا إلى اللغة العربية .

بهذه الطريقة لم يكن أدبنا مقصوراً على الأمة العربية التى كانت تتكلمه ، وإنما شاع وانتقل منها إلى أمم أخرى . ولم يكن معتزلا عاكفا على نفسه ، وإنما كان شائعا ينفع الإنسانية كلها : من كان يعيش فى ظل اللواء الإسلامى ومن كان يعيش بعيدا عن هذا اللواء .

وقد يقال:إن الأدب العربى تأثر بهذه الآداب القديمة التى نقلها،وليس فى ذلك أى عيب.

فكل أدب جدير بهذا الاسم يجب أن يأخذ وأن يعطى وأن يتأثر وأن يؤثر،وإذا رأيتم أدبًا يعيش معتزلا لا يأخذ ولا يعطى ، ولا يتأثر ولا يؤثر ، فثقوا بأنه أدب ميت، أو أدب مقضى عليه بالموت القريب . إنما الأدب الحى هو هذا الذى يعيش متصلا بالآداب الأخرى يأخذ منها ما يلائم طبعه ومزاجه ، ويعطى من ذات نفسه ما ينفع الناس ، ويزيد الحضارة قوة وانتشاراً .

ولسنا ننكر أن أدبنا العربى تأثر بالآداب والفلسفة اليونانية بعد نقلها ، ولسنا ننكر أن هذا قد كان له تأثير خطير جدا فى حياة الأدب العربى أثناء العصر العباسى ، وفى المغرب فى العصور المتأخرة بدءا من القرن الرابع فما بعده، لا ننكر شيئا من هذا، وقد يقال إننا تأثرنا بالآداب الفارسية ، ولكنى لا أعرف أن الفرس أثروا فى آدابنا تأثيرا ذا خطر . كل ما ترجم إلى لغتنا العربية عن الفرس كانت هذه الطائفة من الحِكَم التى نجدها فى كليلة ودمنة ، والتى نجدها فى بعض ما كتب ابن المقفع ، والتى نجدها فى بعض شعر أبى العتاهية ، هذه

الحِكَم وبعض الأمثال القديمة السائرة التى جاءتنا من الهند ، وجاءتنا من عند الفرس ، ترجمت ولكنها لم تؤثر فى الأدب العربى تأثيرا عميقا ، كما أثر الأدب اليونانى . فالأدب اليونانى أثر فى تصور الشعراء وفى خيالهم ، وبفضل هذا الأدب اليونانى وجد شاعر مثل أبى تمام ، وبفضل هذا الأدب وجد شاعر مثل ابن الرومى ، وبفضل هذا الأدب وجد شاعر مثل المتنبى ، ومثل أبى العلاء ، أولئك الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية وظهرت آثار الفلسفة اليونانية فى شعرهم، إما فى صور الشعر كما عند أبى تمام ، وإما فى جوهر الشعر كما هى الحال فى كثير من شعر المتنبى ، وفى شعر أبى العلاء الفلسفى كله ، وأحيانا تؤثر فى الصورة وفى الجوهر كما هى عند ابن الرومى ، فابن الرومى كان شديد التأثر بالأدب اليونانى: فى صوره الأدبية وفى أدائه اللفظى نفسه وفى بعض معانيه ، وفى معانيه الفلسفية بنوعٍ خاص ، وهو أول الشعراء الذين أظهروا التشاؤم فى الأدب العربى .

أما الفرس فلم يؤثروا فى هذا الأدب العربى لسبب بسيط ، هو أن أدب الفرس القديم لم يكن ذا خطر ، وإنما كانت عندهم طوائف من الأحكام الإدارية ، وهذه الأحكام الإدارية والسياسية هى التى تأثر بها العصر العباسى وحده ، ولكن الأدب العربى نفسه لم يتأثر بشىء ذى بال من الآداب الفارسية، لأن هذه الآداب الفارسية لم تكن نفسها ذات خطر ، وعلى عكس هذا عندما استرد الفرس قوتهم فى القرن الرابع للهجرة ، وعندما عدلوا عما كانوا قد ألفوا من اتخاذ اللغة العربية لغة لهم فى حياتهم وفيما كانوا يكتبون ، وأرادوا أن يكتبوا بلغتهم الفارسية الإسلامية الجديدة ، عندما عادوا إلى لغة فارسية خاصة ، لم

تستطع هذه اللغة الفارسية الإسلامية أن تقهر اللغة العربية فى بلاد الفرس أنفسهم ، فكثير من علماء الفرس كانوا يأنفون من كتابة العلم باللغة الفارسية ، ويأبون أن يكتبوه إلا باللغة العربية ، ونرى عالما من كبار علمائهم كالزمخشرى ينازعهم أشد المنازعة فى مقدمة كتابه فى النحو : (كتاب المفصل فى النحو) ينازعهم أشد المنازعة فى الكتابة باللغة الفارسية ، ويأبى إلا أن تكون الكتابة باللغة العربية ويرى أن الفارسية لا تستطيع أن تؤدى المعانى التى تؤديها اللغة العربية . وبالفعل عندما أراد الفرس أن ينشئوا لأنفسهم أدبا فارسيا إسلاميا لم يستطيعوا أن ينشئوا نثرا فارسيا إلا فى العصر الحديث ، أما قبل العصر الحديث فالأدب الفارسى كله شعر ، وهذا الشعر الفارسى الإسلامى ألفاظه فارسية ، وتكثر فى تضاعيفها ألفاظ عربية ، وربما يأتى فى أثناء الشعر الفارسى بيت من الشعر العربى ، وأوزان الشعر الفارسى كله إنما هى أوزان الشعر العربى . استعاروا منا أوزان الشعر العربى وقالوا شعرهم الفارسى مرة فى بحر المتقارب ، ومرة فى الرمل ، ومرة فى أى بحر آخر من بحور الشعر الأخرى العربية . وأذكر أنى سمعت بعض الناس ينشد شعرًا فارسيا فيبتدئ إنشاد هذا الشعر على هذا النحو :

ألا يا أيها الساقى ... أدِر كأسا وناولها
كِهْ عِشق أسان نُمود أول ... ولي أفتاد مشكلها

البيت الأول هو بيت من الشعر العربى القديم :

" ألا يا أيها الساقى أدر كأسا وناولها "

البيت الثانى معناه " العشق فى أوله يسير سهل ولكنه لا يلبث إن تم ، حتى تنشأ مشكلاته. (ضحك) .

كذلك كان الشعر العربى ، وكذلك كان الأدب العربى فى هذا الطور من حياتنا، هو الأدب الممتاز فى العالم الإنسانى فى تلك الأيام ، وكان هو المرجع للأمم الأوروبية التى كانت تريد أن تسترد حظها من الحضارة بعد أن فقدت حضارتها اللاتينية القديمة، ولكن الظروف تتغير ، والأطوار تختلف ، والخطوب يتبع بعضها بعضا . وقد جعلت هذه الخطوب تتوالى على الأمة العربية ، وبدأت بتحول الحكم فى الشرق على الأقل من العرب إلى أمم أجنبية : إلى الفرس أولا وإلى التحكم التركى ثانيا ، ثم إلى الفرس بعد ذلك ، ثم إلى الترك آخر الأمر ، ثم تأتى الدولة التركية العثمانية فتسيطر على الشرق العربى كله وعلى جزء من شمال إفريقيا . ومن حسن الحظ أنها لم تصل إلى المغرب و لم تسيطر عليه !

وأخص ما يحيى الأدب هو الاتصال بين الأمم صاحبة هذا الأدب وبين الأمم الأخرى ، ومن أجل ذلك لم يكد الترك العثمانيون يسيطرون على العالم العربى حتى قطعوا كل صلة بين العالم العربى وبين الخارج ، وفرضوا على هذا العالم العربى أن يعتزل وأن يعكف على نفسه ، لا يتصل بالعالم الخارجى فى أوروبا ، ولا يكون له أى اتصال حتى بين أجزاء العالم العربى نفسه . قطعت الصلات بين الأمم العربية وبين العالم الخارجى ، واضطرت الأمم العربية إلى أن تعكف على نفسها ، وجعل الأدب العربى يضعف قليلا قليلا ، ثم دهم العالم العربى بخطوب أخرى : خطوب التتار فى الشرق، وخطوب الصليبيين وخطب الدولة العثمانية ، كما قلت ، فكان هذا هو الذى أضعف اللغة العربية وأضعف

آدابها ، واضطرها إلى أن تصبح تعيش كما تعيش الجَذْوة تحت الرماد ، ولولا أن الله أتاح لجزأين من العالم حظا من الاستقلال ومكن لهذين الجزأين من حماية الأدب العربى والتراث الإسلامى لضاعت هذه الآداب .

وانظروا إلى حال الأمة العربية تحت تأثير التتار والترك بعد ذلك ، الترك العثمانيين، وإلى الأمة العربية فى المغرب ، فى إسبانيا ، تحت تأثير العناصر المسيحية التى أخرجت العرب وأخرجت الإسلام من إسبانيا ، إنما أتاح الله هذين الجزأين : المغرب الأقصى فى العالم الغربى العربى ، وسوريا ومصر فى العالم الشرقى العربى ، بفضل هذين الجزأين من العالم العربى حُفظ التراث الإسلامى، حُفظ التراث فى الكتب، وفى المكتبات ، وفى المساجد ، وحفظ التراث فى المساجد التى كانت تعلم اللغة والدين والعلوم الإسلامية ، حُفظ هذا التراث فى هذه الأجزاء من العالم العربى فى سوريا وفى مصر فى الشرق،وفى المغرب الأقصى،فى القسم الغربى من العالم الإسلامى .

ثم يأتى هذا العصر، قبل هذا العصر الحديث كان التراث محفوظا ولكنه كان نائما، وكان مهملا ، لم يكن أحد يلتفت إليه تقريبا ، وكان كما قلت لحضراتكم كالجَذْوة التى تعيش تحت الرماد لم تنطفئ ولكنها لا تنشر لهبها ولا تنشر نورها وإنما تظل مستورة تحت الرماد ، هذا العصر الحديث عندما جاء ، وجدنا أدبنا العربى قد فقد كل قوته القديمة التى صوَّرتُها لكم الآن ، وفقد عالميته وأصبح أدبا محليا ، أصبح هناك أدب فى مصر ، وأدب فى سوريا ، وأدب فى العراق ، وآخر فى تونس وفى المغرب ، وهكذا ، ولكن هذه الآداب كلها كانت آدابا محلية كما يقال، لا تتجاوز حدود البلاد العربية إلى العالم الخارجى.

وفى أثناء هذه العصور الوسطى التى قُضي فيها على الأدب العربى بهذا الخمود، قويت أوروبا،قويت بفضل النهضة الأولى التى أتاحها لها الأدب العربى ، ثم قويت بفضل النهضة الثانية التى أتيحت لها بعد سقوط القسطنطينية فى يد الترك العثمانيين ، قويت أوروبا ، وخطت خطواتها البعيدة فى سبيل رقى الأدب ورقى العلم ، وكنا نحن فى غاية الضعف وفى غاية الخمود، وكذلك ترون الواجب الخطير الذى يجب أن نثبت له وأن ننهض به ، وأن نؤديه لأنفسنا أولا ، ولتراثنا العربى القديم ثانيا ، وللإنسانية آخر الأمر .

هذا الواجب بسيط فى ظاهره ، ولكنه ثقيل وخطير عندما نحقق النظر فيه ، هذا الواجب هو إحياء هذا التراث القديم من جهة ، وأن نضيف إليه من عند أنفسنا - من جهة أخرى - لنزيده وننميه ونقويه ، ونرد إليه مكانته العالمية ونجعله أدبا لا ينتفع به أصحابه وحدهم ، وإنما ينتفع به أصحابه وينتفع به العالم الخارجى على اختلاف أجناسه وعلي اختلاف حضاراته . هذا الواجب فى ظاهره بسيط ، ولكنه عندما نحقق النظر فيه خطير جدًا وثقيل جدا ، فهو يحتاج أولا إلى أن ننشر كل هذا التراث المكدس فى المكتبات ، فى أقطار العالم العربى ، ننشره ونفسره ثم نضيف إليه من عند أنفسنا أدبا حديثا جديدا لا تنقطع صلته بالأدب العربى القديم ، ولكنها تتصل به من جهة ، وتزيد عليه وتضيف إليه من جهة أخرى ، ولا ينبغى أن نعيش فى هذه العزلة التى نعيش فيها الآن ، أو نوشك أن نعيش فيها ، لا ينبغى أن نعيش فى هذه العزلة ، نستعير كل ما نحتاج إليه من الحضارات الأخرى الغربية فى أوروبا وفى أمريكا، ولا يستعير أحدٌ منا شيئًا . فنحن بهذه الطريقة نرضى لأنفسنا أن نكون عيالاً على الغرب ، وما

عهد العرب فى أنفسهم أن يكونوا عيالاً على أحد فى وقت من الأوقات (تصفيق) . كانوا يأخذون من اليونان ، ومن الفرس ، ومن الهند ، ومن أمم أخرى كثيرة ، ولكنهم كانوا يعطون ، فلنأخذ من الغرب إذنْ ، ولكن يجب أن نأخذ منه وأن نعطيه . هذا هو الواجب الذى فرض علينا أن ننهض به . وما أشك فى أننا قادرون إن أردنا،وإن صمَّمْنا ، وإن أمضينا عزيمتنا وإن ذكرنا قول الشاعر القديم:

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ　　وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانبا

والذى أتاح لنا أن نجاهد ، وأتاح لنا أن نكافح ، وأتاح لنا أن نصارع الأجنبى لنستخلص منه استقلالنا السياسى فى الشرق،وفى المغرب وفى الغرب،هو الذى سيتيح لنا أن نجاهد وأن نكافح،لنرد إلى أدبنا العربى حياته وقوته ونشاطه، ولكننا لن نجاهِد ولن نكافح أجنبيا فى هذا السبيل ، ولكننا سنجاهد أنفسنا وسنحمل أنفسنا على ما تريد وعلى مالا تريد ، لنصل إلى تحقيق هذه الغاية .

وإنى لأسعد الناس بأن أشرف بإلقاء هذه المحاضرة بين يدى صاحب السمو الملكى وبين أيديكم ، لأنى أرى فى جلالة الملك وفى سمو ولى العهد رمزا أىّ رمز لهذا الكفاح ، ولهذا الجهاد . وإذن فعندما أدعو إلى النهوض بهذا الواجب الخطير الثقيل الذى تفرضه علينا كرامتنا ، أثق بأن سمو الأمير ولى العهد خير من يستمع لهذه الدعوة، وخير من يستقبلها كما ينبغى أن تستقبل ، وخير من يعين على إحياء الأدب فى المغرب . وسيشارك فى إحياء الأدب العربى فى جميع أقطار العروبة كلها ، وأنا أجدد لسموه ولحضراتكم أصدق الشكر وأخلص التحية .

(تصفيق حار وطويل)

الملحق الثاني

نص محاضرة الدار البيضاء للدكتور طه حسين

حول..... " الأدب العربي في مصر قديما وحديثا "

سيداتى ، سادتى !

أرجو قبل كل شىء أن تتفضلوا فتقبلوا تحية العروبة الشرقية ترسلها إلى العروبة المغربية صادرة عن أعماق القلب وعن دخائل الضمائر ، وأرجو أن تتقبلوها على ألا تستقر فى أسماعكم ، كما قلت فى الرباط وإنما تمر فى أسماعكم لتستقر فى أعماق قلوبكم كما صدرت من أعماق قلوب إخوانكم فى الجمهورية العربية المتحدة . (تصفيق) .

وإنى لحريص على أن أشكر أجمل الشكر وأصدقه للسيد الوزير ومدير الجامعة الآن ، أشكر له أجمل الشكر وأصدقه هذه التحية الكريمة التى تفضل بها ، وأعترف وأشهد أنى منذ وصلت إلى بلاد المغرب لم أجد فيها إلا أحسن لقاء وأحسن ترحيب ، لقاء الإخوان للأخ وترحيب الإخوان بالأخ الصديق . ومع ذلك فلست أوافق الأستاذ الوزير على ما قال من أن المغرب تلمذ لمصر ، فالذى أعرفه أن علومكم وصلت إلينا وأن علماءكم وصلوا إلى بلادنا، منهم من استقر فى الإسكندرية وأقرأ تلاميذ من المصريين والشرقيين ، ومنهم من استقر فى القاهرة وأقرأ التلاميذ فى الأزهر الشريف ، فإذا كان هناك أساتذة وتلامذة فأنتم الأساتذة ونحن التلاميذ . (تصفيق)

وأنا أحب أن تعرفوا شيئا عن إخوانكم فى الجمهورية العربية المتحدة وعن حياة الأدب فيها أثناء هذا العصر الحديث لا لأنى أريد أن أحدثكم عن نهضة الأدب هناك ، ولكن لأنى أريد أن تعرفوا إخوانكم وأتمنى إن شاء الله أن يزورنا الأستاذ الوزير وغيره من قادة الفكر فى هذه البلاد ليتحدثوا إلى المصريين والسوريين عن إخوانهم من أهل المغرب فإن الزيارة لابد من أن ترد وأنا

أزوركم الآن وأنتظر أن يرد قادة الفكر هذه الزيارة ، والذين سينعمون برد هذه الزيارة لن أكون أنا وحدى فى استقبالهم لكن سيكون جميع المصريين والسوريين إن شاء الله (تصفيق)

عندما وصل الفرنسيون إلى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر كان الأدب العربى فى مصر قد أدركه ضعف شديد وكان قد بلغ من الضعف أن أصبح لا يكاد يصور شيئًا وأصبح ألفاظا يضم بعضها إلى بعض ويعبث بها الكتاب والشعراء يتخذون هذه الألفاظ تعِلّة لهم تغنيهم عن المعانى التى ينبغى للأدب أن يؤديها ذلك لأن القريحة العربية فى تلك الأيام كانت قد نضبت وأدركها خمود شديد جدا ، ومصدر ذلك أن حياة الأدب رهينة بأن تتصل البلاد بعضها ببعض. وقد أقبل الترك العثمانيون على مصر فى القرن السادس عشر فقطعوا كل صلة بينها وبين العالم الخارجى ، قطعوا الصلة بينها وبين العالم العربى شرقا وغربا ، وقطعوا الصلة بينها وبين العالم الغربى الأوروبى وكانت قبل الغزو العثمانى متصلة بالعالم العربى فى الشرق وفى الغرب ومتصلة بالعالم الأوروبى المسيحى بواسطة التجارة وبواسطة المعاهدات السياسية ، وما إلى ذلك ، فكان الأدب فى تلك الأيام ، قبل الغزو العثمانى، له حظ من حياة مهما تكن فقد كانت قوية خصبة منتجة ، وما أكثر ما يقال عن عصر المماليك فى مصر وسورية ، فكثير من الذين يؤرخون الأدب يقولون : إن هذا العصر قد كان عصر ضعف وخمود لجَذْوة الأدب العربى ، ولكننا عندما نحقق النظر فى شؤون الأدب فى سورية وفى مصر أيام المماليك نرى أن الشعر إن كان أمره قد ضعف فقد كانت هناك نهضة أدبية خطيرة هى التى حفظت على الشرق تراث الإسلام

بعد أن تعرض للخطر العظيم الذى أثاره التتار عندما غزوا العــــراق وعندمـــا أضاعوا ما أضاعوا من الكتب ، وأهدروا وهدموا ما هدمـــوا مـــن الحضــارة الإسلامية فى العراق . كانت سورية وكانت مصر هما الملجأ الذى لجـــأ إليــه التراث الإسلامى ، ونهض السوريون والمصريون يقرؤون ما لجـــأ إلى ســورية ومصر من هذا التراث ويجمعونه ويدونونه فى كتب ضخمة تذكرنـــا بدوائـــر المعارف أو "الأنسكلوبيديات " فى هذه الأيام ، فنرى " النُّوَيْرى " يؤلف "نهايـة الأرب " فى نحو ثلاثين مجلدا ونرى " العمرى " يؤلف " مسالك الأمصـــار " ، ونرى القَلْقَشَنْدى " يؤلف " صبح الأعشى ، ونرى " ابن منظور " يؤلـــف " لسان العرب " ونرى غير هؤلاء ، نرى ابن حجر فى الفقه والحديث وتلاميــذ ابن حجر ، ونرى آخر الأمر "السيوطى " وما أكثر ما جمع الســـيوطى مـــن الكتب القديمة فى كتبه التى ألفها وملأ بها البلاد الشرقية . فى أثناء هذه النهضـة التى إن لم تكن أدبية خالصة فقد كانت نهضة علمية ، وإلى جانبها كانت نهضـة فنية يراها كل من زار القاهرة وكل من زار دمشق ورأى ما فى المدينتين مـــن الآثار الإسلامية ومن المساجد .

فى أثناء هذا أقبل الترك العثمانيون على مصر فهدموا الحضارة الإسلامية فى الشرق العربى كما هدموا الحضارة البيزنطية فى قسطنطينية ، وجرى هذا كله فى أقل من قرن واحد ، هدموا هاتين الحضارتين و لم يؤتوا العالم حضارة تقوم مقام إحداهما ، فضلا على أن يؤتوا العالم حضارة تقوم مقام الحضارتين جميعًا .

وضعف أمر الأدب العربى فى مصر وفى سورية ولولا بقية من الدراسات فى الأزهر وفى بعض المدارس لنسى الأدب العربى نسيانًا تامًا . أثناء هذه القـــرون

الثلاثة ، من القرن السادس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشـــر ، ظـــل الأدب العربى أشبه شىء بالجذوة التى تكاثر عليها الرماد فهى محتفظة بقوها ومحتفظة بما فيها من القدرة على الانتشار والإضاءة ولكن الرماد عليها قد تكاثر وتكـــاثر حتى أصبحت خامدةً أو كالخامدة لا ينطبق لهبها ولا يُشرق نورها ، وأصبـــح كتابنا فى تلك الأيام يبدئون ويعيدون فى ألفاظ مزوقة منمقة لا تؤدى شـــيئا ، ولكنها تخدع أصحابها الذين يكتبونها، وتخدع الذين يقرؤونهـــا ، وتخيـــل إلى أولئك أنهم يكتبون شيئا وإلى هؤلاء أنهم يقرؤون شيئا ! والحقيقة أن أولئـــك وهؤلاء لم يكونوا يكتبون و لم يكونوا يقرؤون . وإنما كانوا غارقين فى شـــىء يشبه هذيان المحموم ، كذلك كانت حياة الأدب ، أيها السادة ، فى ذلك العصر التركى العثمانى .

فعندما أقبل الفرنسيون إلى مصر ، يخيل إلىّ أنهم طرقوا باب العروبة المصرية طرقًا عنيفا ، أيقظ النيام ، فهم قد أقبلوا بأشياء لم يكن المصريون يقدرون أنهـــا موجودة . وهم قد عرضوا على المصريين ألوانًا من العلم وألوانًا من النشـــاط لم يكن المصريون يعرفون أنها يمكن أن توجد فى بلد من البلاد ، عرضوا عليـــهم – أول ما عرضوا – المطبعة . وكان المصريون لا يعرفون إلا أن الكتـــب تكتـــب بالأيدى وتستنسخ وتذاع على هذا النحو البسيط الضئيل . فلمـــا رأوا عمـــل المطبعة ونشر الآثار والمكتوبات دهشوا لهذا أشد الدهش ، ثم عرضوا عليـــهم بعض التجارب العلمية: تجارب الكيمياء والطبيعة فخيل إلى الذيـــن رأوا هـــذه التجارب أن هؤلاء الفرنسيين كانوا أصحاب سحر لا أصحاب علم ،وكذلـــك استيقظ المصريون استيقظوا وقاوموا الفرنســـيين أشـــد المقاومـــة حـــتى أدرك

الفرنسيون أن لا مقام لهم بأرض مصر فزالوا عنها و لم يقيموا فيها إلى ما يقرب من ثلاثة أعوام. زالوا عنها ولكنهم كانوا قد أيقظوها وقد نبّهوها إلى أنها كانت بمعزل من حياة قوية نشيطة ، توجد فى بعض البلاد . ومنذ أوائل القرن الماضى بدأ المصريون يرسلون أبناءهم إلى الخارج ، يرسلونهم إلى إيطاليا وإلى فرنسا وإلى بريطانيا العظمى ، ليعلموا علم هذه البلاد ، وليتعلموا فى مدارسها وجامعاتها وليعودوا بما تعلموا لينشروه فى بلادهم ، وكثرت هذه البعثات التى كانت تسافر إلى هذه البلاد، وإلى فرنسا خاصة وفى الوقت نفسه انهزمت جيوش نابليون فى أوائل القرن ، وضاق كثير من الفرنسيين ببلادهم هذه المنهزمة ، التى احتلها العدو ، فجعلوا يخرجون من بلادهم ويهاجرون إلى بلاد مختلفة . وجاء فريق منهم إلى مصر فاستغلت مصر مقدم هؤلاء ، استغلت بعضهم فى تنظيم جيشها ، واستغلت بعضهم فى تنظيم مدارسها، ومنذ ذلك الوقت ، بفضل إرسال البعثات المصرية إلى ما وراء البحر وبفضل استقبال الأوروبيين الذين كانوا يعبرون البحر إليها ، منذ ذلك الوقت جعلت مصر تبتدئ نوعا جديدا من الحياة ، هى هذه الحياة الحديثة التى نحياها الآن ، جعلت مصر تنظم اتصالها بالغرب الأوروبى ، ترسل أبناءها وتستقبل الغربيين وتنتفع بإرسال أبنائها وباستقبال الغربيين ، وتنشئ المدارس على نحو ما كانت المدارس منشأة فى بلاد الغرب الأوروبى ، فأنشأت مدرسة الطب ، وأنشأت مدرسة الحقوق ، وأنشأت بعد تلك المدارس مدرسة الهندسة ، وجعلت تنشئ المدارس الابتدائية ، ثم المدارس الثانوية ووجد فى مصر، أثناء هذا العصر فى النصف الأول من القرن الماضى ، نوعان من التعليم أحدهما تعليم حديث يذهب

المذهب الأوروبى والآخر تعليم قديم موروث من الأزهر الشريف يذهب مذهب التعليم التقليدى الذى كان معروفا أثناء القرون الوسطى ، ومن ذلك الوقت نشأ فى مصر تياران أحدهما يأتى من أعماق التاريخ الإسلامى والآخر يأتى مما وراء البحر ، فأما التيار الأول الذى كان يأتى من أعماق التاريخ الإسلامى ، فكانت تصوره هذه الكتب العربية القديمة التى كانت نائمة فى المساجد ، فى مكتبات المساجد ، لا يكاد أحد يقرؤها ولا يكاد أحد ينظر فيها . جعلت هذه الكتب تأخذ طريقها إلى المطبعة قليلا قليلا ، وجعل الناس يشترونها ويقرؤونها وينظرون فيها شيئا فشيئا ، وجعل هذا التيار يقوى ثم يقوى حتى استأثر بعقول فريق من المصريين واستأثر بأذواقهم ثم استأثر بألسنتهم وأقلامهم آخر الأمر . وفى أثناء ذلك كان التيار الآخر يأتى من وراء البحر ويقوى كذلك شيئا فشيئا. جعل المصريون يتعلمون اللغة الفرنسية ثم جعلوا يتعلمون غيرها من اللغات الأوروبية ، وبخاصة اللغة الإنجليزية، وجعلوا يترجمون بعض الكتب التى كانت تأتيهم من فرنسا ومن بلاد الإنجليز ، وجعلت العقول والقلوب والأذواق المصرية تتأثر بهذين التيارين : بالتيار الذى يأتى من أعماق التاريخ العربى الإسلامى، والتيار الذى يأتى من وراء البحر ، وجعلت قلوب المصريين وعقولهم وأذواقهم تلائم بين التيارين وتنشئ منهما شخصية جديدة للأدب الذى كان ينشأ فى مصر ، بعد أن مضى النصف الأول للقرن التاسع عشر ،وظهر بعض الشعراء : لا ينظمون ذلك الشعر الذى كان ينظم أيام الترك العثمانيين والذى لا يدل على شىء والذى كان قوامه الجناس وألوان البديع على اختلافها ، وإنما ينظمون شعرًا لم يكن المصريون يعرفونه، أو كانوا عرفوه فى عصور مضت

ونسى ، ينظمون شعرًا على نحو الشعر العربى القديم الذى كان ينظم فى البصرة وفى الكوفة وفى بغداد ، كانوا يقلدون الشعراء العباسيين، وبعضهم كان يتعمق فيقلد الشعراء الإسلاميين أيام بنى أمية، وربما اجتهدوا فى تقليد الشعراء الجاهليين أيضا، وكذلك ننظر فى شاعر مصرى " كمحمود سامى البارودى " الذى ظهر فى النصف الثانى من القرن الماضى ، فنراه يتخذ الشعراء القدماء نموذجًا له ، ويتخذ شعرهم مثالا يحتذيه ، فهو يقرأ القصيدة للشاعر القديم فيحاول أن يعارضها بقصيدة مثلها ، على وزنها وعلى قافيتها حتى إذا أتقن هذا النوع من المعارضة واستحكم فنه وملك ناصية الشعر ، أخذ ينظم شعرًا يعرب فيه عن ذات نفسه أولا ويعرب فيه عن ذات النفس المصرية الوطنية ، فيصف طموح مصر إلى الاستقلال ويصف طموح مصر إلى الحرية ويصف الحرب وقد خاض غمارها فى غير موطن، ويصف الطبيعة ويحرض على الثورة ، ويشارك فى الثورة العرابية التى كانت سبب النكبة، نكبة مصر بالاحتلال البريطانى ، ونجده ينفى إلى جزيرة " سيلان " فيظل فيها بضعة عشر عامًا ، وفى منفاه ينظم شعرًا رقيقا يصور الحنين إلى الوطن ويصور الشوق إلى الأهل والإخوان ويصور الحرمان من طيبات الحياة التى كان يألفها فى مصر. ونجد هذا الشاعر:"محمود سامى البارودى " لا يكتفى بتقليد القدماء ولكنه يختار من شعر القدماء مجموعة ضخمة تنشر بعد وفاته فى أربعة مجلدات .

وعلى نحو السيرة التى سارها البارودى فى أدبه وفى شعره خاصةً ، ينهض أو يظهر شعراء آخرون يذهبون نفس المذهب : يقرؤون الأدب العربى القديم الجاهلى والإسلامى الأموى والعباسى ويحاولون أن يقلدوا هؤلاء الشعراء

القدماء ونرى حافظا ثم شوقي وغير حافظ وشوقى من شعرائنا فى آخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، حتى أتيح لمصر فى هذا العصر الحديث ما لم يتح لها أثناء العصر الإسلامى كله، فمصر لم يتح لها الامتياز فى الشعر فى عصورها الإسلامية المختلفة ، كان الشعر عراقيا أول الأمر ، وكان نجديا وحجازيا ثم صار الشعر سوريا أيام بنى العباس فى القرن الثالث ما بعده أيام أبى تمام والبحترى ثم المتنبى وأبى العلاء المعرى ، وصار الشعر أندلسيا ومغربيا وظلت مصر قليلة الحظ من الشعر ، يفد عليها الشعراء من البلاد العربية المختلفة ويظهر فيها شعراء لا يبلغون الطبقة الثانية ، وعسى ألا يبلغوا الطبقة الثالثة أيضا من الشعر .كان حظ مصر فى الشعر ضئيلاً منذ الفتح العربى إلى العصر التركى العثمانى إلى أواسط القرن التاسع عشر . وبفضل هذه النهضة الحديثة ، وبفضل التقائها بين التيارين : التيار القديم الإسلامى والتيار الحديث الغربى ظهرت فى مصر نهضة شعرية وأتيحت لمصر مدرسة جديدة فى الشعر ، ولكنه شعر تقليدى على نحو الشعر الذى كان يقال فى بغداد وفى البصرة وفى الكوفة كما قلت آنفا، وأتيح لمصر أن تمتاز فى الشعر وأن يتجاوز صوت شعرائها حدودها إلى الشرق وإلى المغرب العربى ، وعُرِف حافظ إبراهيم وعُرِف شوقى وعُرِف خليل مطران فى البلاد العربية كلها وأصبحت مصر ولها مدرسة شعرية للمرة الأولى فى تاريخها الأدبى العربى ، وبهذه المدرسة التى نسميها بالمدرسة المصرية التقليدية فى الشعر ، بهذه المدرسة الشعرية ختم الشعر العربى فى مصر ، فلم يكد هؤلاء الشعراء يتركون هذه الحياة الدنيا إلى العالم الآخر حتى عادت مصر إلى ما كانت عليه قبل وجود هذه المدرسة ، قليلة الحظ من الشعر . يوجد فيها الذين

يقولون القصائد وينشئون القصص التمثيلية على نحو ما كان يصنع شـــوقى ، ولكن كل هؤلاء الشعراء لا يبلغون مبلغ الشعراء التقليديين الذين ذكرتهم آنفـا: البارودى وحافظ وشوقى وإسماعيل صبرى وخليل مطران وسائر شعراء هـــذه الطبقة.

إنما الفن الأدبى الذى امتازت فيه مصر امتيازا ظاهرًا حقًا هو فن النثر ، ففى أواسط القرن تأثر المصريون كما قلت لكم بهذين التيارين لا فى الشعر وحـــده ولكن فى التفكير كله ، بل فى التفكير وفى الشعور ، جعلوا يـــترجمون بعـض الكتب الفرنسية والإنجليزية وجعلوا يرون كيف كان الفرنســيون والإنجلــيز يكتبون ، وجعلوا يعرفون كيف كان ابن المقفع وكيف كان الجاحظ وكيـــف كان الكتاب القدماء يكتبون أيضا، جعلوا يقرؤون للكتاب القدماء ويقـــرؤون للكتاب الأوروبيين ويحاولون أن ينشئوا لأنفسهم نثرًا يتبع مذهب القدمـــاء فى اللفظ وفى الأسلوب ولكنهم يؤدون بهذا اللفظ وبهذا الأسلوب معانى لم تخطـــر للقدماء لأنها معانٍ جديدة جاء بعضها من الغرب الأوروبىّ وابتكر بعضـــها فى مصر ، ولم يكد القرن الماضى ينقضى ويبتدئ هذا القرن حتى نرى مظهرًا طريفًا من مظاهر هذه الحياة الجديدة للنثر الأدبى فى مصر .

فى أوائل هذا القرن يظهر كِتاب صغير ، جعل ينشر فى صحيفة أسـبوعية : كان اسمها " مصباح الشرق " وهذا الكتاب كان ينشر أحاديث ، وكان يسمى حديث عيسى بن هشام ، وكلكم يذكر أن عيسى بن هشام هذا هو صـــاحب الهمذانى الذى كان يتحدث عنه فى مقاماته ، فكان الهمذانى فى مقاماته يقــول : حدثنا عيسى بن هشام ثم يأتى بقصته فى المقامات ، فصاحب هذه الأحاديث فى

تلك الصحيفة وهو "محمد المويلحى " كان يكتب حديث عيسى بن هشام ، لا على أنها مقامات كمقامات الهمذانى ولكن على أنها قصة طويلة ، يكتبها بنفس الأسلوب الذى كان يكتب به الهمذانى مقاماته ولكنه يخالف الهمذانى لأنه لا يكتب مقامات قصارًا ولكنه يكتب قصة طويلة تصور الحياة الاجتماعية فى مصر فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الذى نحن فيه : يزعم أنه ذهب مرةً إلى المقابر فإذا بقبر يفتح ويخرج منه رجل يجر كفنه وهذا الرجل هو أحد الباشاوات القدماء الذين عاشوا فى أول القرن الماضى : " أحمد باشا المنيكلى " ، وهذا الرجل يتعرف بالمتحدث الذى يتحدث إلينا ، ويتخذه دليلا ، يزور معه مدينة القاهرة ويبحث معه عن أشياء كانت له وهكذا ، وبهذه الطريقة يصف لنا مدينة القاهرة فى حياتها ، وحياتها الاجتماعية فى أواخر القرن الماضى وفى أوائل هذا القرن ويصفها وصف الناقد للحياة الاجتماعية ، الساخر من الذين يحافظون على القديم ، والمعجب بالذين يطمحون إلى تغيير الحياة القديمة ويذهبون مذهبًا حديثًا فى الحياة . وكان هذا هو أول مظهر لتأثر النثر العربى بالتيارين القديم والحديث ، فكما قلت لكم صاحب حديث عيسى بن هشام يكتب على أسلوب الهمذانى وعلى طريقته ولكنه يصل الحياة الاجتماعية ويعرض عليها قصة طويلة على طريقة الأوروبيين فيلتقى هذان التياران التيار الأوروبى والتيار العربى القديم فى هذا الكتاب التقاء حسنًا ، ولكننا نحس فيه قوة التيار العربى. فالكاتب يذهب مذهب الهمذانى فى وضوح صارخ ، وهو فى الوقت نفسه ربما التزم السجع أحيانًا عندما يريد أن يتأنق فى الوصف .

وتمضى أعوام وإذا كاتب آخر يظهر وهو مصطفى لطفى المنفلوطى ، وإن لم يكن مصطفى لطفى المنفلوطى يعرف لغة الأوروبيين فإنه كان يعيش بين الذين يعرفون لغة الأوروبيين ، وكان يقرأ الكُتب التى كانت تترجم من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية فحرص هو أيضا على أن يكتب بالأسلوب العربى القديم على أن يؤدى معانى عربية حديثة ، وكتب مقالات أيضا كانت تنشر فى الصحف ، كان عنوانها "النظرات" ثم جعل تُترجم له كتب فرنسية ترجمة عادية ويؤديها هو بلغته العربية الرائقة الجميلة على الأسلوب العربى القديم ، وكذلك ترجمت له بعض الكتب التى كتبت فى فرنسا مثلا: ترجمت له " سِيرَاندودِبِيرْجِيرَاك " (Cyrando de ber Gerac) مثلاً وأداها بلغة عربية قديمة راقية ، وترجمت له بعض القصص كقصة تحت ظلال الزيزفون " Àl'ombre des tillules " وعلى هذا النحو .

وفى أثناء هذا كله كان هناك جيل جديد ينشأ فى المدارس الحديثة ، ويتعمق دراسة اللغات الأجنبية أو بعبارة أدق دراسة اللغتين الأجنبيتين : الإنجليزية والفرنسية ويتعمق دراسة الأدب الإنجليزى والأدب الفرنسى . وإلى جانب هذا كان هذا الجيل يدرس الأدب العربى أيضا ويدرس الأدب العربى التقليدى القديم : يحفظ الشعر ويحفظ مقطوعات من النثر ويحاول أن يؤدى المعانى بمقدار ما يستطيع . بعض الشبان يحاول تقليد الجاحظ فى الإطناب وبعضهم يحاول تقليد ابن المقفع فى الإيجاز وعلى هذا النحو.

ولكن الحرب العالمية الأولى تفجع مصر بنوع خاص ، ولا تكاد تنقضى حتى يثور المصريون مطالبين بالاستقلال وتكون ثورتهم عنيفة حقًا ، ولم تخل من

سفك دماء بين المصريين والإنجليز المحتلين، وهذه الثورة التى كانت فى أول أمرها سياسية لم تلبث أن تصبح ثورة سياسية وفكرية بالمعنى الواسع الدقيق ، وإذا المصريون الذين ثاروا بالإنجليز وأرادوا تغيير النظم السياسية: نظم الاحتلال البريطانى ، يريدون أن يغيروا نظم الحكم الداخلى ويثورون بالسياسة الملكية التى كانت مسيطرة فى مصر ويريدون أن يحكموا حكمًا حرًا وأن يكون لهم دستور وأن يكون لهم نظام برلمانى على نحو ما هو مألوف فى البلاد الغربية الأوروبية ، ثم لا يكتفون بالثورة على النظم الداخلية وعلى نظام الاحتلال ولكنهم يثورون على النظم الفكرية القديمة أيضا .

ويثورون على الأساليب القديمة فى الشعر وفى النثر ، فتنشأ طائفة تعبث بشوقى وحافظ وبالمدرسة الشعرية التقليدية وتريد أن تنشئ شعرًا جديدًا تذهب فيه مذهب الشعراء الأوروبيين : الشعر عربى اللفظ ، واضح الأسلوب ناصع الديباجة ، ولكن المعانى التى تؤدى بهذا الشعر ليست هى نفس المعانى التى كان يؤديها الشعراء المقلدون: شوقى وحافظ وخليل مطران ومن إليهم من هؤلاء الشعراء الذين كانوا لا ينظمون قصيدة إلا نظروا إلى قصيدة للمتنبى أو لأبى تمام أو للبحترى أو لكذا أو لكذا. يأبون إلا أن ينشئوا شعرًا جديدًا ويأبى الكتاب إلا أن ينشئوا أيضا نثرًا جديدًا . وتنشأ فى مصر ثورة عنيفة بين القدماء والمحدثين، فهناك أصحاب المذهب القديم الذين يحافظون على الكتابة العربية كما ورثت عن الجاحظ وابن المقفع وعن الهمذانى وعن الحريرى ومن إليهما. وآخرون يريدون أن يطلقوا أنفسهم على سجيتها وأن يؤدوا المعانى كما يجدونها فى نفوسهم ، لا يتكلفون ولا يتعلمون ولا يلتزمون شيئا ، إلا أن يكونوا معربين

حين يكتبون ، واضحين للذين يقرؤونهم أو يسمعونهم ، ثم لا يريدون أكثر من هذا . وتقوى هذه الثورة شيئا فشيئًا حتى تسيطر على الحياة الفكرية المصرية أثناء العصر الأول للثورة المصرية من انتهاء الحرب العالمية إلى نحو ثلاثين وتسع مائة وألف ، وبعد ذلك تفرض على مصر ألوان من الاستبداد الداخلى والخارجى أيضا : تعاون بين القصر الملكى وبين الإنجليز .

وتفرض أحكام عرفية تحجر على الأفكار وتمنع الناس من أن يعربوا على ذات نفوسهم كما يحبون ، ونجتهد نحن الكتابَ والشعراء فى تلك الأيام فى أن نخادع السلطان وفى أن نعبث بالأحكام العرفية وفى أن نؤدى ما نريد على رغم القوانين المفروضة وعلى رغم الأحكام العنيفة التى كانت تفرض علينا ، ونصل إلى التغلب على الحكام أيضا : منا من يهجو القصر ، ومنا من يهجو الإنجليز ، ومنا من يهجو الوزراء، وما إلى ذلك من كل هذه الحريات التى أخذناها غلابا . ولا نحفل بأحكامهم العرفية ولا نحفل بالمحاكم ولا بالسجون ولا بشئ من هذا، وإنما نؤدى ما نريد أن نؤديه مرة بالصراحة ومرة بالألغاز، ولا أنسى كتابًا كتبته أنا فى ظل أقوى ما يمكن أن يكون من قسوة الأحكام العرفية ولكنه كان كتابًا لم أصارح فيه أحدًا بشىء، وقلت فيه مع ذلك كل ما أريد أن أقول ، وسميته " جنة الشوك " لأن هذا الكتاب كان يتألف من مقطوعات قصار ليس فيها مقطوعة إلا وفيها غمزة لحاكم أو لملك أو لوزير . (تصفيق)

وفى أثناء هذا ، أيها السادة ، نشأ فى مصر فى الأدب العربى فنَّان جديدان لم يألفهما الأدب العربى من قبل ، أما أحدهما ففن القصص الطويل والقصير ، هذا الفن بدأ فى أول القرن كما قلت لكم فى حديث عيسى بن هشام ، ولكن

القصاص تحرروا من السجع ومن تقليد الكتاب القدماء وأنشؤوا لأنفسهم لُغتهم الخاصة العربية ومذهبهم الخاص فى الكتابة وجعلوا يقلدون فى أول أمرهم القصص الأوروبى الذى كانوا يقرؤونه باللغات الأوروبية أو مترجما إلى اللغة العربية ثم لم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم وحققوا شخصيتهم وأنشؤوا قصصًا مصريًا جديدًا لا يقلدون فيه كاتبًا أوروبيا، إنجليزيا أو فرنسيا .

وإذا أتيح لكم أن تقرؤوا ما ينشر فى مصر من القصص الآن فإنى أحب أن تقرؤوا ما يكتبه كاتب مصرى من الكتاب الشبان الذين تخرجوا فى جامعة القاهرة وهو نجيب محفوظ ، كتب طائفة من القصص أعتبرها أنا أروع ما أنتج فى الأدب المصرى الحديث : كتب قصصًا وهو يتحرى حين يكتب أن يختار شارعًا من شوارع القاهرة أو حيًا من أحيائها ويختار فى هذا الحى أسرة من الأسر ويكتب تاريخ الأسرة وبكتابة تاريخ الأسرة يصور تاريخ الحى ويصور تاريخ القاهرة ويصور تاريخ الأحداث السياسية التى كانت تحدث فى القاهرة ، وإذا أتيح لكم أن تقرؤوا هذه السلسلة التى كتبها باسم " قصر الشوق " وباسم "بين القصرين " و" السكرية " فسترون قصصًا عربية أصيلة بأدق معانى الكلمة.

أما الفن الآخر فهو فن التمثيل : الأدب التمثيلى ، وأنتم تعرفون أن الأدب العربى لم يعرف التمثيل اليونانى ولم ينشئ أدبًا تمثيليًا وهو لم يعرف الآن التمثيل اليونانى لأن المسيحية كانت قد حظرت فن القصص التمثيلى ، فالمسلمون عندما أخذوا يترجمون الآثار اليونانية ترجموا الفلسفة والعلم ، وهكذا ، ولكن الآداب لم تترجم لأن المسيحية كانت قد حظرتها لأنها كانت تعتبرها أدبًا وثنيًا، مهما يكن من شئ فقد جعل بعض كتابنا ينشئون قصصًا تمثيليا ، ونشأ عندنا

كاتب - كلكم سمع اسمه فيما أظن - هو "توفيق الحكيم " هو الذى وظف التمثيل فى اللغة العربية وجعله مصريًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة : أنشأ طائفة من القصص التمثيلية ، أكثرها يقرأ ولا يكاد يمل ، وهو قد أنشأ طائفة من القصص كلها جيد وكلها رائع ، وكذلك استطعنا أن نحيي شيئًا من تراثنا القديم بمقدار، لا أقول إننا قد بلغنا من ذلك الذى نريد ، بل لا أقول إننا بلغنا من ذلك بعض ما نريد. فنحن فى أول الطريق ولكننا مع ذلك قد أحيينا طائفة غير قليلة من الكتب العربية القديمة ، وقد نظمنا لإحياء التراث الآن ، وضعنا له نظامًا جديدًا ، ونحن الآن أمام حكومة جديدة فى مصر : حكومة الثورة ، وقد التزمت إحياء التراث العربى ووضعت نظامًا خاصًا لنشر هذا التراث ، وإلى جانب ما تفعله الحكومة ، الجامعة العربية أيضا تُحيي طائفة من التراث القديم وتنشر طائفة من الكتب القديمة ، كتبا قيمة . والتزمت الحكومة كما تلتزم الجامعة العربية إلى جانب إحياء التراث القديم ، التزمت الحكومة والتزمت الجامعة ترجمة الآداب الأوروبية العليا : فالجامعة العربية ترجمت فى هذه السنين الأخيرة " شكسبير " : كل قصص شكسبير ، وسينشر المجلد الأول من هذه القصص فى هذا العام إن شاء الله ، والحكومة تترجم روائع الأدب الأوروبى وبينكم هنا أستاذ من أساتذتنا المصريين أخذ فى ترجمة "سيرفانطيس " إلى اللغة العربية وهو الأستاذ الأهوانى . (تصفيق)

فإلى جانب ما نبذل من جَهدٍ متواضع فى إحياء التراث العربى وفى العِلم بما عند الأوروبيين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ، قد أتيح لنا بفضل هذا الجَهْد المتواضع أن نضيف إلى الفنون التى ورثناها عن العرب الأولين هذين الفنين

الجديدين : فن القصص الطويل على النحو الأوروبى وفن التمثيل أيضـــا ، إلى فنون أخرى فى النثر ، هذا الفن الذى ذكرته " جنة الشوك " مثلا : هذا النـوع الذى أسميته " الإبيكراما " (Epigrama) والذى هو عبارة عـــن المقطوعــات القصار التى تغمز ، والتى يؤدى بها الكاتب ما يريد دون أن يصرح بشـئ ، ولا ينشر منها مقطوعة إلا عُرف مَن المراد .

وقد ذكرت فى الحديث الذى ألقيته منذ أيام فى الرباط أنى ألجأ إلى المغـرب وإلى سائر البلاد العربية فى المشاركة فى هذا الجهد لإحياء التراث العربى ، هــذا الجهد الذى يبذل فى مصر ويبذل فى سورية ويبذل فى العراق الآن على مقــادير تختلف قوة وضعفًا. أرجو أن تشارك فيه بلادكم أيضا . فقد سبقتم إلى كثــير من الفضل فى إحياء التراث العربى القديم ، وفى حفظه ، وعندكم منه كنــوز لا يُقدر قدرها ولابد من أن تظهر هذه الكنوز ، ولابد من أن ترى النور ولابد من أن تنشر ، تنشر فى المغرب وتنشر فى المشرق أيضا ، ولابد من التعــاون علــى إحياء هذا التراث .

وسألنى سائل فى جريدة (العَلَم)،هل سنظل نذكر القدماء ونذكر أبا تمـام وأمثاله؟ أو هل يجب أن نعيد النظر فى مقاييسنا وفى أحكامنا وفى تفكيرنا ؟

وأجيب على هذا السؤال بأننا سنظل نذكر قدماءنا (تصفيق) ، نظل نذكرهـم وسنظل نحفظهم وندرسهم ،وهم قد عاشوا إلى الآن وما نريد أن نحتمـــل الإثم فنقضى عليهم بالموت ، ولو حاولنا ذلك لما بلغنا منه شيئًا ، لأنهم كانوا أقــوى من الزمن ، وأقوى من الدول ، وأقوى من الخطوب (تصفيـــــق) : عاشــوا وسيعيشون ، ولكنى لا أريد أن نقتصر ولا أن نكتفى بذكر القدماء وحفظـــهم

ودرسهم ، وإنما أريد أن نعرف كل ما عند الغرب ، نعرفه معرفة المتقصى المتعمق ، وأن نجمع ما نعرفه مما عند الغرب إلى ما نعرفه من أمر قدمائنا ، وأن نكون لأنفسنا شخصيتنا الجديدة الحرة القوية المستقلة (تصفيق) ، وأن نضيف إلى ما تركه العرب لنا تراثًا جديدًا ، فلا ينبغى أن نورث أبناءنا ما ورثناه فحسب وإنما ينبغى أن نورث أبناءنا ما ورثناه وما أنتجناه نحن، ويمضى الأمر على هذا الحال وترقى الحياة العقلية والأدبية العربية بمقدار ما ترقى الحياة العلمية كلها وبمقدار ما ترقى الحياة السياسية .

وإنى لسعيد أيها السادة بأن ألقيت إليكم بهذه الأحاديث التى تضطرب دائمًا فى أعماق نفسى والتى لا أزور بلدًا عربيًا إلا تحدثت إليه فيها ، وطلبت إليه المشاركة فى إحياء التراث العربى أولاً ، وفى تعريب الحضارة الأوروبية ثانيًا ، وفى إنشاء الشخصية العربية الجديدة آخر الأمر . وإنى لسعيد بأن أتحدث إليكم فى هذه الأشياء وأنا أسعد أيضًا عندما آكِل وأعتمد على الدولة المغربية ، وعلى هذه الدولة القوية الفتية فى أن تظل جديرةً بنفسها ، حفيظةً على مكانتها وهى البلد العربى الذى لم يذق مرارة الاستعمار إلا أقل زمن ممكن (تصفيق) ، هذا البلد الذى حفظ استقلاله من الأحداث والخطوب ، و لم يخضع للاستعمار إلا وقتًا قصيرًا جدًا ثم لم تلبث غمرته أن انجلت ، والحمد لله . فهذا البلد هو أجدر البلاد العربية بأن يكون فى مقدمة الحماة للتراث العربى . وفى مقدمة البلاد التى تحيي العقلية العربية الجديدة وتشارك فى إنشاء الشخصية العربية الجديدة . (تصفيق)

ويكفى أن أقول هذا وأن أعتمد فيه على جلالة الملك المعظم وعلى سمو ولى العهد (تصفيق) وعلى الأستاذ السيد محمد الفاسى وأمثاله من أعلامكم (تصفيق) ويكفى أن أنشد فى هذا المقام :

إِذَا أَيْقَظَتْكَ خُطُوبُ الزَّمَانِ   فَنَبِّهْ لَهَا عُمَرًا ثُمَّ نَمْ ![1]

وقد نبهت عُمَر ولكنى أعدكم أننى إن شاء الله لن أنام . (تصفيق طويل)

[1] البيت لبشار بن برد فى مدح عمر بن العلاء ، وورد فى ديوانه على النحو التالى :

إِذَا أَيْقَظَتْكَ حُرُوبُ الْعِدَا   فَنَبِّهْ لَهَا عُمَرًا ثُمَّ نَمْ

الملحق الثالث:

نص محاضرة فاس للدكتور طه حسين

في موضوع: "مشاكل الأدب العربي بعد الإسلام"

سيداتى ، سادتى ،

أرجو أن تتفضلوا فتأذنوا لى ، قبل كل شىء بأن أهدى لكم من أعماق نفسى أصدق التحية وأخلص الشكر على هذا اللقاء الكريم الذى تفضلتم به علىّ منذ بلغنا فاس أمس ، ولقد سمعت أمس من الخطباء ومن الشعراء نثرًا رائعًا وشعرًا بارعًا ، ولولا أنى كنت عاجزًا على أن أقول شيئًا لكان لى موقف أمس، وإنى لأذكر ما سمعته أمس من الشعر والنثر وفى نفسى كثير من الاستحياء ، فقد سمعت ثناءً أرجو أن أكون أهلاً فى يوم من الأيام لأقلّه ، أما كله أو أكثره فشىء لا مطمع لى فيه ، ومن قبل قيل " إن أعذب الشعر أكذبه " ، وإنى أعتذر إلى شاعرنا العظيم أمس من ذكر هذه الجملة القديمة ، ولكنى أعترف بأنى لم أسمع ثناءً قط إلا ذكرت بيتا قديمًا ، وما أعجبتنى قط دعوى عريضة ولو قام فى تصديقها ألف شاهد ، فأنا دائمًا مطمئن كل الاطمئنان إلى أنى لا أستحق ثناءً وإلى أنى لم أعمل شيئًا أستحق من أجله الثناء ، ولهذا أشكر الذين يتفضلون بالثناء عليّ ، ثم لا أزيد على أن أهدى إليهم أصدق الشكر دون أن أصدق مما يقولون شيئًا (تصفيق) .

وإنى لا أهدى إليكم تحيتى الخاصة فحسب ، وإنما أهدى إليكم أيضًا تحية الجمهورية العربيّة المتحدة (تصفيق)، أهدى إليكم تحية الجمهورية العربية المتحدة رئيسًا وحكومة وشعبًا فى مصر وفى سورية (تصفيق) ، وأحب أن أقول لحضراتكم إنى طالما تمنيت أن أزور المغرب عامة وأن أزور هذه المدينة الحبيبة إلينا خاصة (تصفيق) ، فلمدينة فاس فى قلوبنا مكانة أىّ مكانة ، فهى كانت موئل الحضارة العربية وموئل العلم العربى والتراث العربى كله فى المغرب،

وهى قلعة من قلاع الإسلام الحصينة وقلعة كذلك من قلاع العروبة الحصينة ، ومن أجل ذلك لا نذكرها إلا اشتقنا إلى زيارتها ولا نذكرها إلا ذكرنا جامعة القرويين (تصفيق) وما يتصل بها من المدارس ، ونحن نقدر فى أعماق نفوسنا أن جامعة القرويين هى أقدم الجامعات الإسلامية ، وعسى أن تكون أقدم جامعات الأرض كلها (تصفيق) ، فإذا اشتقنا إليها وحنت قلوبنا إلى زيارتها ولقاء أهلها الكرام فلا غرابة فى شىء من ذلك فإنما نشتاق إلى موطننا الطبيعى (تصفيق) ، ولست أدرى كيف أشكر لمدينتكم هذه الحبيبة حسن لقائها ، لا حسن لقاء أهلها فحسب ، بل حسن لقاء جوها وإقليمها أيضا ، فقد لقيَتنا أحسن لقاء ، صفت لنا سماؤها ورق لنا هواؤها وطابت لنا شمائل أهلها ، فلم نلق فيها منذ بلغناها أمس إلا خير ما يحب الناس أن يلقوا ، وإنى لعاجز كما أعجز دائمًا على شكر كل هذه النعمة . ولا أملك إلا أن أحمد الله عز وجل أصدق الحمد على أن أتاح لى تحقيق هذا الحلم السعيد .

وأريد اليوم أن أتحدث إليكم عن بعض مشكلات تاريخ الأدب العربى القديم ، وأعتذر إليكم قبل كل شىء من أن أكون بينكم محاضرًا فأنا ، كما يقول أبو العلاء ، عندما أتحدث إلى علماء فاس، كالذى يحمل الماء إلى خَضارة أو يحمل التمر إلى هجر ، وإنى لأستحيي من نفسى أن أقوم بينكم مقام المتحدث فى شىء من العلم وقد كان الحق علىَّ أن أقوم بينكم مقام التلميذ من أساتذته علماء جامعة فاس (تصفيق) . والمشكلات التى أريد أن أثيرها أمامكم الآن لا أثيرها إلا لأنى أريد أن تُعنوا بها شيئًا وأن تمنحوها بعض الجهد بالدرس والتحقيق ، فليس لى فيها رأى قاطع وإنما أنا أثير مشكلات ، وأنا أحب دائمًا

وقد أحببت دائمًا أن أثير المشكلات وأن أنشر القلق حيثما كنت (تصفيق).
وهذه المشكلات تأتى من أشياء تقررت فى تاريخ الأدب العربى ويخيل إلى أنها فى حاجة إلى أن نعيد النظر فيها .

والمشكلة الأولى منها هى هذه التى تقررت ويقولها الأساتذة والمعلمون لطلابهم وتلاميذهم فى الجامعات وفى المدارس ، وهى أن ظهور الإسلام قد أسكت الشعراء حينًا لأن القرآن قد بهرهم ببلاغته وبيانه الرائع ، وأظن أن ابن خلدون كان أول من قرر هذه القضية فى مقدمته ، وتبعه الذين أرخوا للآداب العربية فى العصر الحديث واحتجوا بما قيل أو بما روى أن عمر رضى الله عنه أرسل يسأل عن الشعراء فى مدينة الكوفة فلم يجدوا هناك إلا شاعرًا واحدًا هو لبيد فلما سألوه عن الشعر وما يقول فيه قال : لقد استغنيت بسورة البقرة وآل عمران عن الشعر ! وعلى هذا تقرر فى تاريخ الأدب العربى أن العصر الذى تلا ظهور الإسلام قد كان عصرًا ضعف فيه الشعر ضعفًا شديدًا ، ولم يكد يُعرف الشعر الجيد إلا بعد مضى نحو نصف قرن ، وظهر الشعراء الجدد الذين نشؤوا فى الإسلام.

هذه القضية تحتاج إلى بحث وإلى بحث مطول ، ذلك لأننا نجد الشعراء قد استمروا بعد ظهور الإسلام وفى أيام الخلفاء الراشدين وفى أيام الفتح الإسلامى، أيام عمر، وأيام عثمان، استمروا يقولون الشعر كما كانوا يقولونه فى العصر الجاهلى، لم يغيروا من طريقتهم شيئًا، وإنما ظلوا يقولون الشعر كما كان القدماء قبل الإسلام يقولونه ، يبدؤون بالغزل وبوصف الربوع والأطلال ، وبوصف هذا الحنين إلى أماكن الأحبة ، وبوصف انتقال الأحبة من ديارهم إلى

أمكنة أخرى يسموها أو لا يسموها ،ثم يتسلون عن هذا الحنين وعن هذا الشوق المؤيس بوصف الناقة ، وبوصف الصحراء التى تسافر فيها الناقة سفرًا طويلا شاقا غير قاصد ، ويطيلون بوصف هذه الناقة كما كان الجاهليون يطيلون ، ويشبهوها مرة بالثور الذى يذعر عندما يحس نبأة من الصائد، ويطيلون فى وصف هذا الثور البائس الذى تطارده كلاب الصيد ويصارعها ما استطاع ثم يصرع آخر الأمر ، ثم يذكرون أنفسهم ولذاهم فى عصورهم القديمة ويذكرون شربهم للخمر ويذكرون لهوهم واستماعهم للغناء جلوسًا إلى الخمر ، يحف بهم الريحان ، كما كان الأعشى يقول فى الشعر الجاهلى ، ومنهم من يقول الشعر فى موضوعاتٍ جديدةٍ أو قديمة أخرى ، ويكفى أن تقرؤوا فى المفضليات بعض القصائد التى قيلت بعد ظهور الإسلام وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، فهناك متمم بن نوير الذى جعل يرثى أخاه مالكا بشعرٍ رائعٍ ممتع حقا ، وهناك عبدة بن الطبيب الذى يصف حياته ويذكر حرب المسلمين مع الفرس ولا يمنع ذلك من أن يصف لهوه ولذته ، ومن أن يصف مواقفه من اللهو واللذة كما كان الجاهليون يفعلون ، وهناك الحطيئة الذى لم تمنعه عقوبة عمر رضى الله عنه له بالسجن من أن يظل هجَّاء ومن أن يهجو أمه ويهجو آخر الأمر نفسه فى أبياته المشهورة :

أَبَتْ شَفَتَايَ اليَوْمَ إلاَّ تَكَلُّمًا ... بشَرٍّ فَمَا أَدْرِى لمنْ أَنَا قَائِلُهْ

أَرَى لِى وَجْهًا شَوَّه الله شَكْلَهُ ... فَقُبِّحَ مِنْ وَجْهٍ وَقُبِّحَ حَامِلُه!

ولا تؤاخذونى إن كنت غيرت بعض الألفاظ من هذا الشعر .

والحطيئة يعيش فى أقوى عصور الإسلام قوة ، عيشةً جاهلية خالصة فهو يمدح ويهجو ويتغزل ويعيش كما كان الشعراء الجاهليون يعيشون ، وما أكثر الشعراء الذين يذكرون فى كتب الأدب.وفى كتاب الأغانى بشكل خاص ، والذين يعدون من الشعراء الجاهليين وقد عاشوا أو عمروا إلى عصر متأخر فى الإسلام عاشوا إلى أيام معاوية ، فهناك لبيد وهناك النابغة الجعدى وهناك الحطيئة إلى آخر هؤلاء الشعراء الذين تجدونهم فى الكتب، والذين لم يُعرضوا عن قول الشعر بعد ظهور الإسلام وإنما ظلوا يقولونه كما كانوا يقولونه فى العصر الجاهلى ، وكم أحب أن أستقصى أمر كعب بن زهير ، ماذا صنع بعد أن أنشد النبى صلى الله عليه وسلم قصيدته " بانت سعاد " أقال الشعر بعد ذلك أم سكت ، هذه أشياء أحب أن نعيد النظر فيها وأن ندرسها دراسة دقيقة ، وسنرى فيما أعتقد أن هذه النظرية التى أثارها ابن خلدون والتى تقول إن الشعر العربى قد ضعف بعد الإسلام إنما هى نظرية خاطئة !

ولا علينا مما يقال إن شعر " حسان " كان فى الجاهلية أقوى منه فى الإسلام فهذا أيضًا كلام لا قيمة له عندى ، ذلك أن الشعر الذى كان حسان يقوله أيام النبى صلى الله عليه وسلم كان من أرصن الشعر وأقواه ، وإذا اخترع الشعر بعد ذلك وأضيف إلى حسان وظهر فيه شىء من ضعف ، فهذا الضعف ليس يضاف إلى حسان نفسه ، وإنما يضاف إلى الذين اخترعوا هذا الشعر وصنعوه ثم حملوه على حسان ، أما الشعر الذى يروى عن حسان أيام النبى صلى الله عليه وسلم وبعد أيام النبى فكله شعر جيد جدير بشعر حسان فى العصر الجاهلى ،

فهذا الذى يقال من أن شعر حسان فى الإسلام كان أضعف منه فى الجاهلية أيضًا كلام لا أصل له !

هذه المشكلة كما قلت أحببت أن أثيرها أمامكم كما يثير التلميذ مشكلة أمام أستاذ من أساتذته ليجد لها حلاً ، وأنا أرجو أن تتفكروا فيها وأن تتدبروا، وما أشك فيما بينى وبين نفسى فى أنكم سترون أن هذه النظرية التى أثيرت وقررت فى تاريخ الآداب ليست نظرية صحيحة بحال من الأحوال ، وهذه المشكلة هى أيسر المشكلات التى أريد أن أثيرها أمام حضراتكم ، وهناك مشكلة أخرى أيضًا تحتاج إلى كثير من التفكير وإلى كثير من البحث والتدبر ، ذلك أننا نقرأ تاريخ الأدب العربى أثناء العصر الأموى فنلاحظ ظاهرة غريبة ، نلاحظ أن الحجاز ، وهو موطن الوحى ، قد أصبح أيام بنى أمية موطن الغزل والغناء والموسيقا واللهو والفراغ والترف ، ونفهم هذا فهمًا جيدًا لأن الأمويين منعوا أبناء المهاجرين والأنصار من العمل السياسى ، وحالوا بينهم وبين الخروج من الحجاز إلا أن يذهبوا إلى دمشق للقاء الخليفة ، وأخذ جوائزه وعطاياه ، ثم يعودوا إلى الحجاز ويفرغوا للهوهم ومتاعهم . وقد أتيح للحجاز فى تلك الأيام كثير من الثراء وكثير من الأسارى الذين أصبحوا رقيقا وموالى ، يعملون لسادتهم من أبناء المهاجرين والأنصار ومن أشراف أهل الحجاز ، يزرعون لهم الأرض ويصنعون لهم ما يحتاجون إليه ، ويقومون على ترفهم ولذاتهم فى دورهم، منهم من يفرغ للطعام ، ومنهم من يفرغ للباس ، ومنهم من يفرغ للزينة ، ومنهم من يفرغ للغناء وللموسيقا ، وكان بنو أمية يمنعون هؤلاء الشباب من أبناء المهاجرين والأنصار من العمل السياسى ولكنهم يغدقون عليهم

العطاء ويكثرون من إرسال الأموال إليهم ، يريدون أن يصرفوهم عن المطامع السياسية فكثر بذلك المال وأغلّت لهم الأرض مالا إلى مال ، وعمل لهم الرقيق ما زاد ثراءهم أيضًا وما زاد ترفهم واستمتاعهم بطيبات الحياة ولم يبق لهم إلا أن يفرغوا لهذا النعيم ، فجعل بعضهم يقول الشعر ، يقوله غزلاً جادًا محتاطًا متحفظًا بالوقار العربى القرشى كما كان يفعل عمر بن أبى ربيعة على كثير من العبث فى شعره أيضا ، ومنهم من كان يسرف فى العبث ، وفى المجون كما كان يفعل شعراء المدينة . وكثر الغناء فى الحجاز ، وكثرت الموسيقا ، وكثرت مجالس الطرب ، وكثرت تلك المجالس التى كانوا يجتمعون لها ويجتمع فيها المغنون والمغنيات والعازفون والعازفات ، ويكثر فيها الغناء ، ولا يزال الغناء يقوى ويشتد حتى يثير الحاضرين ، فإذا هم يثبون ثم يتراقصون ، كما يفعل المحدثون الآن ، إنما على رقصٍ خاصٍ بالطبع ليس كالرقص الذى نعرفه الآن فى أوروبا، أو فى البلاد الشرقية . مهما يكن من شيء فكتب الأدب على اختلافها تصور لنا الحجاز أثناء القرن الأول على هذا النحو من الترف والفراغ واللهو وقول الشعر فى الغزل والغناء وما إلى ذلك وينشأ عن هذا أيضًا أن الشعراء يريدون أن يلائموا بين شعرهم وبين الغناء وبين شعرهم وبين الموسيقا فيخففون الأوزان الطويلة التى ورثوها عن العصر الجاهلى وينشئون الأوزان المجزأة ، ويصنعون هذا الشعر الرقيق القصير الذى يلائم العزف ويلائم غناء المغنين وبينما نرى هذا كله فى الحجاز ، ونرى موسم الحج بالقياس إلى شعراء الحجاز وإلى شعراء مكة بنوع خاص ، وعمر بن أبى ربيعة بنوع أخص ، نرى موسم الحج موسمًا لضرب من المتاع واللهو ، واذكروا إن شئتم قول عمر :

عُوجِي عَلَيْنَا رَبَّةَ الهـوْدَجِ ... إنَّـكِ إلاَّ تَفْعَـلِي تحـرَجِ
إنِّي أُتِيحَتْ لِي منية إحـ ... دَى بَنِي الحَارِثِ مِنْ مذحجِ
فِي مَوْسِمِ الحجِّ ومَاذَا منى ؟ ... وأَهْـله إنْ هِي لم تَحجـجِ !
نَلْبَـثُ حَوْلاً كَامِلاً كُلَّه ... لاَ نَلْتَـقِي إلاَّ عَلَى مَنْـهَجِ

وكان عمر ، كما تعرفون ، لا يدع شريفة من أشراف الحجاز ولا من أشراف الشام تذهب إلى الموسم حتى يقول فيها الشعر ، وكان أشراف النساء يحرصن على أن يذكرهن عمر بن أبي ربيعة ، وربما أنفقن في ذلك المال أيضا ، وكان عمر ربما توعده الخلفاء ومنعوه وحرجوا عليه أن يصف الأميرات ، ولكنه على ذلك كان يقول ، وكان الأحوص مسرفًا على نفسه في المدينة ، كلكم يذكر قصته مع سليمان بن عبد الملك عندما أمر بتشهيره في المدينة ونصبه للناس، وعندما أمر آخر الأمر بنفيه عن المدينة إلى اليمن . كل هذا كنا نراه في الحجاز ، ونرى أكثر جدًا مما قلت لكم ، وأى دراسة للمغنين والمغنيات في مكة وفي المدينة تعطيكم صورة واضحة عن هذه الحياة الفارغة اللاهية في مدن الحجاز، وإلى جانب هذا كنا نرى في بادية البلاد العربية : في بادية الحجاز وفي بادية نجد ، نوعًا آخر من الغزل ، لا يصور لهوًا ولا فراغًا ولا استمتاعًا بطيبات الحياة ، وإنما يصور حرمانًا ويأسًا وألما وهو هذا الغزل الذى نسميه بالغزل العذرى والذى لا أعلله إلا بأنه كان إعرابًا عما كان الأعراب في الحجاز وفي نجد يجدونه من الألم لأنهم لم يستمتعوا بما كان يستمتع به المترفون في مدن الحجاز وفي أمصار الشام والعراق من النعيم والثراء والترف ، وإنما كانوا يعيشون كما كانوا يعيشون في العصور القديمة ، يرعون إبلهم ويتنقلون بها من

مكان إلى مكان ، ويضيقون بسعاة الصدقة عندما كانوا يأتون فى كل حـــول ليأخذوا منهم الصدقات ، وكانوا قد فقدوا شـــبابهم ، فقـــد ذهـــب الأبنـــاء والإخوان وذهب الشباب كلهم إلى الثغور يجاهدون العدو ، يقيم منهم من يقيم فى البصرة أو فى الكوفة أو فى أجناد الشام أو فى أجناد مصر أو فى شمال إفريقيا، ويذهب الذاهبون منهم إلى الثغور كما كانت القاعدة ، فبعُد العـــــهد بهـــم ، وتركوا الشيوخ وتركوا العاجزين عن الغزو ، تركوا أولئك فى الحجاز وفى بادية الحجاز وفى بادية نجد ، يعيشون كما كانوا يعيشون من قبل " فليلى " و " عزة " و" بثينة " و " سلمى " و" ريّة " كل هذه الأسماء التى يتغزل بهـــا الشـــعراء العذريون ليست فيما أرى أسماء لنساء بأعينهن ، وإنما هى رموز لهذه الآمـــال الضائعة وهذه الأحلام التى لم تتحقق ، وهذه الأمانى التى يحول بينـــهم وبـــين تحقيقها الحرمان ، هذا الذى كنا نراه فى بلاد العرب ، فى جزيرة العرب : غـــزل يصور اللهو والفراغ فى مدن الحجاز ، وغزل يصور الحرمان والألم والشـــوق فى بادية الجزيرة العربية ، فإذا ذهبنا إلى العراق لم نر من هذا كله شيئًا، وإنما رأينـــا حياة صارمة وجدًا أى جد وقسوة أى قسوة ذلك أن أهـــل العـــراق كـــانوا مشغولين إما بالجهاد وإما بمعارضة الحكومة المركزية فى دمشق. فى العراق كـــان الخوارج، وفى العراق كانت الشيعة والخوارج. والشيعة يعارضون بـــنى أميـــة، يعارضونهم بألسنتهم دائمًا ، ويعارضونهم بسيوفهم كلما سنحت لهم الفرصـــة ، فإذا التقوا فى أمصارهم فى البصـــرة أو فى الكوفـــة ، خلـــوا إلى أنفســـهم فى مساجدهم يجادل بعضهم بعضًا فى السياسة، ويجادل بعضهم بعضا فى أصـــول الإسلام ، ويجادل بعضهم بعضًا فى هذه الأشياء التى اختلف المسلمون فيها منـــذ

كانت الفتنة التى قتل فيها عثمان رضى الله عنه ، ومنذ كانت الحرب بين على رحمه الله وبين معاوية .

كل هذه المسائل كانت تشغل أهل العراق عن لهو أهل الحجاز وعن فراغهم ، فهم لم يكونوا أصحاب فراغ ، وإنما كانوا أصحاب عمل وأصحاب جد وأصحاب حرب وأصحاب معارضة : معارضة باللسان ومعارضة بالسيف، ثم هم كانوا أيضًا أصحاب مناظرة وعن مناظراتهم فى مساجد البصرة والكوفة ، نشأ علم الكلام عند المسلمين .

فى أثناء هذا كان أهل العراق يسخرون من الحجازيين ، ويسخرون من غزلهم ، ويسخرون من حبهم للغناء ، ولم يكن العراقيون يحبون أن يستمعوا للغناء وإنما كانوا ينكرون على الحجازيين حبهم للغناء ، ثم ننظر فجأة فى أواسط القرن الثانى الهجرى عندما أديل من بنى أمية لبنى العباس فإذا اللهو كله فى العراق إلى جانب الجد ، وإذا الشعر الذى يصور الخلاعة والعبث والمجون كأبشع ما تكون الخلاعة ، وكأبشع ما يكون العبث والمجون ، كل هذا فى العراق على نحو لم يعرفه الحجاز حتى فى المدينة التى غضب عليها سليمان بن عبد الملك ، والتى أراد سليمان أن ينفى عنها المغنين . فمن أين انتقل هذا اللهو وهذا الفراغ ومن أين جاء إلى العراق ؟ وكيف تحول العراق من هذه الحياة الجادة الحازمة الصارمة ، التى كان يحياها أيام بنى أمية إلى هذه الحياة اللاهية الخليعة الماجنة التى كان الشعراء يحيونها فى البصرة وفى الكوفة جميعا إلى جانب الفقهاء والعلماء من رجال المعتزلة ومن رجال أهل السنة؟ كيف كان هذا ؟ وكيف تم على هذا النحو من الفجاءة الغريبة ؟

هذه مشكلة أعرضها على حضراتكم ، وقد افترضت فرضا ، لا أقطع به ، ولكنى أرجو أن تفكروا فيه وعسى أن تحققوه ، وهذا الفرض هو أن هذا الغـزل وهذا اللهو الذى انتقل من المدينة إلى الشام أولاً ثم انتقل من الشام إلى العـراق ، لم يأت من الفرس كما يقال عند الذين يؤرخون الآداب العربية ، لم يأت مـن الفرس، وسترون ما جاء به الفرس فى هذه الناحية ، وإنما أتى من الحجاز قبـل كل شيء ونحن نقرأ فى تاريخ الأدب العربى فى النصوص القديمة أنَّ يزيد بن عبد الملك بن مروان ذهب إلى المدينة أيام سليمان بن عبد الملك وأعجبته مغنيـة ، كانت أمة لبعض أهل المدينة ، وهى " سلامة " فاشتراها وغالى فى ثمنها ، وبلـغ الأمر سليمان فأنكر هذا الشراء وألغاه ، وعاد يزيد محزونا ، فلما توفى سـليمان ومات عمر بن عبد العزيز رحمه الله وصار الأمر إلى يزيد لم يكن قـد نسـى "سلاّمته " تلك فاشتراها ، وجاءت " سلامة " إلى الشام واستقرت عند يزيـد بن عبد الملك ، وبفضل سلامة عفا يزيد عن الأحوص بن محمـد ودعـاه إلى الشام، وبفضل سلامة وفد المغنون من الحجاز إلى دمشق ، ويغضب هشام بـن عبد الملك على الوليد بن يزيد ويتقدم إليه فى أن يصرف عنه هؤلاء الموالى ، وفى أن يسير سيرة يرضاها المسلمون . ويأبى الوليد ويقطع هشام عن الوليد أرزاقه ، ويكاد يبطش بهؤلاء الموالى ، ولكن الوليد يأبى ويقاوم ويقاوم حتى يموت هشـام ويؤول أمر الخلافة إلى الوليد بن يزيد وكلكم يعرف ما كان يروى عن الوليـد بن يزيد مع ما فيه من إسراف فى العصر العباسى ، فقد أسرف العباسيون علـى الوليد ونسبوا إليه أشياء ما أظن أنها صحيحة ، فهم ينسبون إليه أنه كان يرمـى المصحف بالسهام ويقول له ذلك الشعر :

إِذَا لَقِيتَ رَبَّكَ يَوْمَ حَشْرٍ فَقُلْ يَا رَبِّ مَزَّقَنِى الْوَلِيدُ !

إلى آخر هذا الشعر وأنا شخصيًا أعتقد أن هذا ربما كان من كذب الرواة على الوليد تقربًا إلى بنى العباس . مهما يكن من شيء فأنتم تعرفون كيف انتهت حياة الوليد : انتهت بالثورة ، وكان الثائرون عليه بنى أمية أولاً ثم غيرهم من أهل الشام بعد ذلك ، وقتل الوليد وتفرق عنه أولياؤه ومغنوه ومطربوه وعادوا إلى العراق ،ويصادف هذا ضعف الدولة الأموية ثم يدال من بنى أمية لبنى العباس . وهنا يظهر ما أضافه الفرس إلى لهو الحجاز ، ذاك الذى انتقل إلى الشام أيام يزيد بن عبد الملك ، وقوى فى الشام أيام الوليد ابن يزيد وسار إلى العراق بعد أن قتل الوليد . هنا بعد أن يدال لبنى العباس يظهر ما أضافه الفرس إلى ما ورد عليه من لهو الحجاز .

كلكم يذكر أن الشيعة كانوا يطالبون بتحقيق المساواة بين المسلمين ، بتحقيق المساواة التى أمر الله بها فى القرآن ، والتى أمر النبى بها فى سنته : لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم " وكلكم يذكر أن بنى أمية قد جعلوا حكومتهم عربية ، وجعلوا أمر الحكم كله إلى العرب ، وأظهروا أمر العرب ، وازدروا إلى حد بعيد غير العرب ، من البلاد التى غلبت وفتحت على المسلمين ، ولم ينصفوا المسلمين من الفرس ومن غير الفرس ، من البلاد المغلوبة ، لم ينصفوهم ، وإنما نظروا إليهم على أنهم موالٍ ، ونظروا إليهم على أنهم أقل درجة ، لم يعطوهم حقوقهم السياسية ، ولم يعطوهم حقوقهم الاجتماعية كاملة وإنما جعلوا السيادة الكاملة والسلطان الكامل بأوسع معانيه

للعرب دون غيرهم من المسلمين فضلاً عن المسلمين وكان الشيعة يطالبون بتحقيق المساواة بين العرب وغير العرب ، وبفضل هذه المطالبة استطاعوا أن يستأثروا بقلوب الفرس ، وبفضل حرصهم وإظهارهم المطالبة بهذه المساواة استطاعوا أن يجندوا الفرس ، وأن ينتصروا بهم على بنى أمية ، وأن يقيموا الدولة الجديدة ، دولة بنى العباس . والواقع أن الذين انتصروا فى الثورة العباسية إنما كانوا هم الفرس ، انتصروا على العرب ، وفى نفوس كثير من الفرس كان هذا الانتصار انتصافًا من العرب ، وكانوا يرون أنهم أخذوا ثأرهم ذاك وعادوا إلى السيادة بعد أن فتحت بلادهم أيام الخلفاء الراشدين . وكلكم يعلم أن بنى العباس بعدما تولوا الحكم لم يأمنوا للعرب ، فمحوا أسماء العرب من دواوين الجند واعتمدوا على الفرس ، وحدهم أول الأمر ، ثم اعتمدوا بعد ذلك على الترك إلى آخر ما تعرفون من تاريخ بنى العباس ... المهم أن هؤلاء الموالى الذين انتصروا أسكرهم الانتصار وظنوا أنهم قد بلغوا كل شيء وقد ساروا إلى خير ما كانوا يحبون فازدروا كل التقاليد القديمة العربية و لم يعبؤوا بالدين ، و لم يحفلوا بالعادات القديمة ، ولا بالوقار العربى ، واستهتروا بلهوهم ولعبهم ،وأضلفوا إلى ما وفد إليهم من الشام ، من الحجاز من طريق الشام ، أضافوا إليه هذا المجون الفاجر الذى تجدونه عند " بشار " ، وتجدونه عند " مطيع ابن إلياس " وتجدونه أحيانًا عند غيرهما مثل " أبى نواس "وعند غير هؤلاء الشعراء وكذلك استطاع شاعر كأبى نواس أن يجهر بمثل هذا البيت :

أَلاَ فاسْقِنِى خَمْرًا وَقُلْ لِى هِىَ الخَمْرُ وَلاَ تسْقِنِى سِرًّا إِذَا أَمْكَنَ الجَهْرُ !

وأن يجهر بما هو أشنع من هذا ، واستطاع بشار أن يسرف فى الغزل ، وفى وصف المجون واللهو حتى ضج منه أهل البصرة ، وظهرت هذه الفنون العابثة الماجنة فى الغزل وفى وصف الخمر وفى الهجاء الفاحش الذى زاد على ما عرف من هجاء " الفرزدق " وجرير" ثم أسرفوا حتى أنشؤوا غزلهم الجديد ذاك ، غزلهم بالغلمان ، وهو شىء لم يعرفه العرب . هذه هى الأشياء التى أضافها الفرس إلى ما ورثوا من لهو أهل الحجاز . وقد ترون أنى بهذا الحديث الذى قد أكون أسرفت فى إطالته ، قد عرضت عليكم شيئًا من هذه المشكلات التى يجب أن نعيد النظر فيها وأن ننظر فى التاريخ الأدبى العربى نظرة جديدة لعلنا نستطيع توضيحه وتحقيقه وإحياءه كما ينبغى أن يحيا ، فليس يكفى أن نقرأ ما يكتب فى الكتب وأن نقرره ونعيده على تلاميذنا وطلابنا كما قرأناه ، ونصبح كأننا هذه الأداة التى تحكى ما يسجل لها من الأصوات أو نصبح كأننا الببغاء . وإنما وهبنا الله عقولاً لنفكر بها ووهبنا أذواقًا لنقيس بها الجيد إلى الردىء فيجب إذن أن نعمل عقولنا ، ويجب أن نعيد النظر فى تاريخ الأدب العربى كله ، ولا سيما فى هذه القرون الأولى ، وسترون عندما تعيدون النظر فى تاريخ الأدب العربى القديم فى القرنين الأول والثانى بنوع خاص، سترون أنكم ستستكشفون حقائق كثيرة لا تعرف إلى الآن ، والشىء الذى أحب أن أقرره أمام حضراتكم هو أن ما نعرفه من تاريخنا الأدبى قليل جدًا بالقياس إلى ما نجهله . فما أكثر ما ندرس شاعرًا من الشعراء فنكتفى بأن نقرأ ما كتب صاحب " الأغانى " عن الأدب العربى ونكتفى بالأبيات التى يرويها " أبو الفرج " وأقلّنا هو الذى يفرغ فى

النظر إلى ديوان هذا الشاعر أو ذاك ، وأقلنا الذى يستنبط حياة الشاعر من شعره لا من كلام صاحب الأغانى وأمثاله من الذين كتبوا فى العصر العباسى .

كل شيء يدعونا إلى أن نعيد النظر فى تراثنا القديم ، نعيد النظر فيه لأننا نحبه ونريد أن نستخلص صفوته ، ونريد أن نزيل عنه ما لصق به وما ران عليه من الأوهام والأساطير والخرافات . وأؤكد لكم أنكم إذا أعدتم النظر فى تاريخ الأدب العربى والتمستموه فى شعر الشعراء لا فى حديث الرواة ، والتمستموه فى الدواوين لا فيما يختصر من الدواوين ستجدون متعة أى متعة ، وستجدون نعمة أى نعمة ، ستشعرون أنكم تستكشفون التاريخ العربى من جديد .

وقد قلت لكم فى أول هذا الحديث إنى قد أحببت دائمًا أن أثير المشكلات وأن أثير القلق من حولى. وإنى لأرجو أن أكون قد أثرت بين أيديكم من المشكلات ونشرت حولكم من القلق ما يدعوكم إلى ألا تقرؤوا (الأغانى) إلا لتقرؤوه ليس غير ، ولتأخذوا منه بعض ما تحتاجون إليه من العلم ، ولا تتخذوه وحده مصدرًا للتاريخ الأدبى فالكذب فى كتاب الأغانى كثير ، والانتحال فيه كثير ، والتزوير على القدماء فيه كثير أيضا ، والخير كل الخير فى أن نلتمس الأدب العربى فى النصوص القديمة نفسها وفى دواوين الشعراء وفى رسائل الكتاب لا فى ما يحكى عن الكتاب والشعراء . وإذا فعلنا هذا كنا أولا قد أنصفنا أدبنا العربى وطهرناه من الأوهام والأساطير ، وكنا ثانيًا قد أحييناه الحياة الجديرة به ، وكنا ثالثًا قد رددنا على أنفسنا عقولنا ، وقد بحثنا كما ينبغى للعلماء أن يبحثوا، وخرجنا من هذا التقليد الطويل الذى أفسد علينا كثيرًا من أمرنا إلى الآن .

أما بعد فإنى أجدد التحية وأجدد الشكر وأعتذر إليكم من هذا الحديث الذى أطلت فيه وأرجو ألا أكون قد أثقلت عليكم بهذا الإسراف .

الملحق الرابع :

محاضرة الدكتور طه حسين بتطوان حول :

" مشاكل الأدب العربي ...."

نقلاً عن مراسلة لمجلة (رسالة الأديب) المراكشية.

عدد ٥ - ٦ يونيه يوليه ١٩٥٨.

تلخيص الأستاذ عبد اللطيف بوحسين مع شكرنا.

للأستاذ عبد الصمد العشاب.

محافظ مكتبة عبد الله كنون بطنجة

استهل عميد الأدب العربى محاضرته بتقديم تحايا وعبارات الأخوة من الجمهورية العربية المتحدة حكومة وشعبًا إلى الشعب المغربى عامة ، " وقد رد الحاضرون على تلك التحية بتصفيقات حادة استمرت طويلا " ثم بدأ الدكتور حديثه عن المشاكل التى تتصل بالأدب عمومًا كأزمة قلة القراء نظرًا لتعلق الناس فى هذا العصر واهتمامهم المفرط بأمور الحياة ومشاكلها وانشغالهم بها وانغماسهم فيها ، دون أن يسمحوا لأنفسهم بالقراءة أو لغيرهم بأن ينصحهم بها ، خاصة إزاء الاختراعات التى غزت المجتمعات البشرية والتى تجمع بين التعليم والتسلية بما فى ذلك السينما التى تجذب الناس إليها ، وتقدم لهم فى يسر يسير ما يحبون أن يعرفوا من تاريخ الناس وأحداثهم وأحاديثهم ، ثم النادى أو القهوة التى تحشر الناس إليها وتغريهم بما تقدم لهم من شراب مستساغ ، وما يقدمه البعض منهم للبعض الآخر من أحاديث سهلة ممتعة حول الناس والسياسة والمجتمع ... ثم المذياع الذى ينطلق تارة فى يسر وأخرى فى عنف يصب فى رأس المستمع من الموسيقا والغناء والأحاديث ما يشاء بمجرد ما يضغط على هذا الزر. ويطالع الناس فى الصحف فى الصبح والمساء فتشغلهم بقراءة أنبائها وتعليقاتها عن أن يجدوا وقتًا ينصرفون فيه إلى القراءة الجدّية والمجدية ، ثم إن التعليم الإجبارى الذى فرضته ديمقراطية العصر خلق كثرة من القراء من مختلفى الثقافات لا تستطيع الكثرة منهم أن تفرغ لقراءة الأدب الرفيع وإعمال الفكر فيه والأديب فى ذلك بين اثنين - يقول الدكتور العميد - إما أن يكتب للكثرة وإما أن يكتب للقلة فإن كتب للأولى نزل بأدبه حيث لا ينبغى ، وبذلك لن يرضى نفسه وأدبه وضميره ، وإما أن يكتب للقلة ويفرغ لأدبه وهو إن فعل

ذلك أوشك أن يقتل نفسه جوعًا ؛لأنه غير واجد من يستطيع أن يعتمد عليهم، وهنا يجد نفسه مضطرًا لمزاولة عمل حر أو وظيفة حكومية فليحمل بذلك نفسه الوقوع فى صحراء قاحلة حيث يصرف عن القراءة الرفيعة المتواصلة ، ويحال بينه وبين الإشباع الثقافى فيصاب ما يكتبه بالفراغ والضحالة . وهنا وقف الدكتور طه حسين مقارنًا بين الأديب المعاصر والقديم مبديًا ما كان يتمتع به الأدباء القدامى من تشجيع وعطف وتقدير ، والوقت الذى كان يهيأ لهم ليفرغوا لأدهم وليضاعفوا من إنتاجهم، مكتفين بقصائد ومدائح يقدمونها فى بعض المناسبات لحماة أدهم من الخلفاء والأمراء والوزراء كضريبة أو إتاوة بسيطة للمحافظة على تلك الذخائر الأدبية والعلمية التى تحفل ها المكاتب العربية فى مختلف الأقطار . ومبالغة فى الحفاظ على تلك الذخائر كانت تكتب باسم هذا الخليفة أو ذاك ، أو بطلب منه ، أو إهداء له ، أو لأحد وزرائه . ويزيد الدكتور: ومهما بلغت سخريتنا، نحن المعاصرين ، بأولئك الأدباء أو الشعراء عندما يمدحون من يحبون فلن تبلغ سخريتهم هم أى بمن يمدحونهم حينما يتخذونهم حماةً لهم ولأدهم ودورًا للنشر لإنتاجهم فى طول البلاد وعرضها .

كانت آثار وكتب الجاحظ وكان أدب المتنبى وشعره " الذى لم يخلص فى مدحه إلا لسيف الدولة نظرًا لمواقفه المشرفة" ، وما كانت آثار هذين وغيرهما لتصل إلينا بهذه الروعة والفائدة لولا الحماية التى كانا يتمتعان ها ! إلا أن أدباء العصر أصبحوا يربؤون بأنفسهم وبأدهم من أن يكون تزلفًا وإن كان هذا التزلف تطوَّر أيضا ليصبح توظفا ! ثم الطباعة ودور النشر التى حملت عنهم بعض العبء وقانون حرية الفكر والنشر الذى حمل عنهم البقية الأخرى على أن

التوظف الذى يضطر إليه الأديب قد يدفعه إلى قبر مواهبه والقضاء على نزوعه العلمى والتوجيهى ... هذه بعض المشاكل التى عالجها الدكتور العميد فى القسم الأول من محاضرته والتى تتصل بمشاكل الأدب عمومًا ، ثم ذكر بعض ما تقوم به الجمعيات والمنظمات فى العصر الحاضر لمحاولة معالجة هذه المشاكل خاصة فى أوروبا مثل نادى القلم، ومنظمة اليونسكو ، واللجنة الثقافية للجامعة العربية . ومن هنا تطرق للحديث عن مشاكل تعليم الأدب العربى وهى أدق وأخطر – كما قال سيادته – وهو حريص أشد الحرص على معالجة هذه المشاكل الخطيرة.

وتعليم الأدب العربى إحدى مشاكله الكبرى ما دام مرتكزا على اللغة العربية وغير متيسر إلا بها ، والشباب العربى الذى أخذ يكتسب عقلية القرن العشرين يجد من الصعوبة بمكان مسايرة الطريقة المتبعة فى تعليم اللغة العربية وآدابها ، فإذا لم تصلح هذه اللغة، وييسر هذا النحو – يقول الدكتور العميد – فإننا نجد أنفسنا مسؤولين عن إعراض الشبان عن الأدب العربى ، بل ونعتبر محرضين لهم على ذلك ما دمنا نقف هذا الموقف السلبى . وتأتى بعد هذه المشكلة مشكلة الكتابة العربية التى تجعل الفهم قبل القراءة بدلا من أن تسبق القراءة الفهم نظرًا لعوامل الشكل والإعراب. وهنا أتى الدكتور بأمثلة عديدة مبينا الصعوبة الشاقة التى يجدها المتعلم المبتدئ مما يبغض إليه اللغة والبلاغة وأستاذ العربية وآدابها، والنتائج البسيطة السطحية التى يحصل عليها الطالب بعد تخرجه النهائى وعدم تمكنه من لغته قراءة وكتابة صحيحة فضلا عن أن يتكلم بها . هذا مع ما يجده فى اللغات الأوروبية من سهولة تغريه بأن يتزيد منها كلما تقدم فيها قراءة وكتابة وحديثًا .

ولم يفت عميد الأدب فى آخر الأمر تحذيرنا من مدرسة اللغة العامية أو لغة الشارع كما يسميها الدكتور التى نشأت فى بعض البلاد العربية وأخذت تجد لها أنصارًا كثيرين وفى مصر خاصة والتى تدعو إلى اتخاذ اللغة العامية لغة الكتابة والأدب مبينا الأخطار التى تكمن وراء هذه المدرسة فيما إذا قدر لها الانتشار والانتصار فيكون بذلك القضاء على العربية كلغة تجمعنا تاريخًا ودينًا وقومية، ويكون مصيرها مصير اللاتينية لا يرجع إليها إلا لدراسة أصل اللهجات العامية كما يرجع إلى اللاتينية لدراسة أصول اللغات الأوروبية ، هذا مع ما فى ذلك من قطع الصلة بين البلاد العربية وانكماش كل واحدة منها مع لهجتها الخاصة بها والتى لا يستطاع فرضها أو التفاهم بها مع غيرها مطلقًا !

ويقول عميد الأدب : وهذا خطر - يمحق وجودنا كأمة ذات تاريخ وأدب ولغة مشتركة . وما علينا إلا أن نختار بين ذلك وبين طرق تدريس الأدب وتيسير الكتابة والنحو ، أما مصر فقد اختارت أو هى فى طريق الاختيار عندما قرر مجمع اللغة العربية بالقاهرة تيسير النحو وإعادة النظر فى الطرق المتبعة فى تدريس اللغة والأدب . ثم ناشد ، فى الختام ، الأديب الكبير أدباء المغرب وعلماءه ومفكريه بأن يساهموا بدورهم فى تحرير الأدب العربى والكتابة العربية من تلك القيود الثقيلة مذكرًا إياهم بأن أول من ركن إلى ما فى النحو العربى من سحر وطلاسم غير مفهومة ودعا إلى إصلاحه القاضى المغربى ابن مضاء فى نهاية القرن الثانى عشر [1] "

---

(1) وقع خطأ عند تلقى المحاضرة ، فعوض ابن مضاء كتب (ابن نظارة) وعوض القرن الثانى عشر كتب القرن السادس عشر الأمر الذى أربكنا بعض الوقت .. وقد ظهر أن القصد إلى ابن مضاء أبى العباس أحمد بن عبد الرحمن اللخمى قاضى قرطبة وفاس ومراكش ، له أسماء كثيرة إلا أنها ضاعت عند استيلاء الروم على المرية . له كتاب فى الرد على النحويين انتقده ابن خروف فعقب عليه ابن مضاء قائلا : نحن لا نبالى بالكباش النطاحة فكيف تعارضنا الخرفان ؟! وللدكتور الأستاذ شوقى ضيف تأليف حول الموضوع على ما أسلفنا. توفى القاضى ابن مضاء يوم ٢٧ جمادى الأولى ٥٩٢ - ١٩ أبريل ١١٩٧ . د. التازى، جامعة القرويين ج ١ ، ١٧٥ طبعة دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٢ .

الملحق الخامس .

قصيدة الشاعر محمد الحلوي التي ألقاها .

يوم ١٩٥٨/٧/٢

حَقٌّ عَلَى الشِّعْرِ أَنْ يُهْدِى عَرَائِسَهُ … تَحِيَّةً لِعَمِيدِ الشِّعْرِ وَالأَدَبِ
حَقٌّ عَلَى الشِّعْرِ أَنْ يُهْدِى قَلاَئِدَهُ … لِصَانِعِ الدُّرِّ وَالإِبْدَاعِ وَالْعَجَبِ
فَبَيْنَ وَافِدِنَا وَالشِّعْرِ مِنْ زَمَنٍ … وَشَائِجٌ جَمَّةٌ مَوْصُولَةُ النَّسَبِ
هَفَا إِلَيْكَ كَمَا يَهْفُو الْفَرَاشُ إِلَى … خَمِيلَةِ الزَّهْرِ يَرْوِى الشَّوْقَ عَنْ كَثَبِ
هَفَا إِلَى حِضْنِكَ الدَّافِى لِيُنْعِشَهُ … مِثْلَ الْيَتِيمِ الَّذِى يَهْفُو لِحِضْنِ أَبِ
وَمَا لِغَيْرِكَ يَهْفُو بَعْدَمَا رَفَعَتْ … لَهُ يَدَاكَ مَقَامًا فِى ذُرَى الشُّهُبِ
يَشْدُو بِآيَاتِكَ الْكُبْرَى الَّتِى فَخَرَتْ … بِهَا النَّوَادِى وَأَغْلَتْ ثَرْوَةَ الْعَرَبِ
مَرْحَى بِأَكْرَمِ ضَيْفٍ زَارَ إِخْوَتَهُ … فَوَثَّقَ الرَّحِمَ الْقُدْسِيَّةَ السَّبَبِ
هَبَطْتَ بِالْيُمْنِ أَرْضًا طَالَما نَزَعَتْ … إِلَيْكَ وَاسْتَأْنَسَتْ فِى الْوَصْلِ بِالْكُتُبِ
سَعَى إِلَيْكَ بَنُوهَا فى مَوَاكِبِهِمْ … يُكَرِّمُونَ أَدِيبَ الشَّرْقِ بِالأَدَبِ
خَفُّوا إِلَى الْعِلْمِ يَطْوِى الْبَحْرَ مُتَّجِهًا … إِلَى بَنِيهِ بِهَذَا الْمَغْرِبِ الْعَرَبِى
يَسْتَرْوِحُونَ بِلُقْيَا طَالَ مَوْعِدُهَا … وَيَسْمَعُونَ عِيَانًا صَوْتَكَ الذَّهَبِى
لَمْ يَنْسَ أَبْنَاءُ هَذَا الشَّعْبِ صَرْخَتَكُمْ … يَوْمَ الجِلاَدِ وَهُمْ فِى زَحْمَةِ الكُرَبِ !
أَرْسَلْتَهَا مِنْ ضِفَافِ النِّيلِ عَالِيَةً … دَوَّى صَدَاهَا عَلَى الآكَامِ والهِضَبِ
وَخُضْتَها بِسلاَحِ الْفِكْرِ فَانْتَفَضَتْ … ضَمَائِرٌ رَزَحَتْ فِى ظُلْمَةِ الْحُجُبِ
كَانَتْ عَلَى الْفِكْرِ أَنْكَى مِنْ مَدَافِعِهِمْ … وَقْعًا وَأَفْتَكَ فِى الْهَيْجَا مِنَ الْقُضُبِ
إِنَّا – بَنِى الْعُرْبِ – فِى الآلاَمِ يَجْمَعُنَا … مَاضٍ مَجِيدٌ وَقُرْآنٌ وَدِينُ نَبِى
مَا فِى بَنِى الشَّرْقِ شَعْبٌ لَمْ تَنَلْهُ يَدٌ … سَفَّاكَةٌ مِنْ غُزَاةِ الْغَرْبِ فِى الحِقَبِ
أَبْنَاءُ رَابِطَةٍ لاَ شَىْءَ يَفْصِلُنَا … فَمَنْ بِفَاسٍ كَمَنْ فِى مِصْرَ أَوْ حَلَبِ
نَوَائِبٌ جَعَلَتْ أَهْدَافَنَا هَدَفًا … وَعَلَّمَتْنَا انْتِزَاعَ النَّصْرِ بِالْغَلَبِ

لَمْ نَنْسَ نَخْوَةَ مِصْرٍ يَوْمَ بَيَّتَها   أَعْدَاؤُهَا فَانْثَنَوْا بِالْعَارِ وَالْهَرَبِ
أَرْضُ الْعُرُوبَةِ كَانَتْ كُلُّهَا هَدَفًا   لِلْمُعْتَدِى وَقَنَاةُ الْمَوْتِ وَاللَّهَبِ
بِرَغْمِ مَا بَيَّتُوا لِلشَّرْقِ مِنْ فِتَنٍ   وَمَا أَذَاقُوا بَنِيهِ الصِّيدَ مِنْ لَغَبِ
ثُرْنَا -كَمَا يَعْهَدُونَ الْعُرْبَ - أُسْدَ شَرَى   تَنْقَضُّ بِالْمَوْتِ فِى بَأْسٍ وَفِى غَضَبِ
حَتَّى هَوَتْ دَوْلَةُ الطُّغْيَانِ وَانْهَزَمَتْ   فُلُولُهَا وَأُسُودُ اللهِ فِى الطَّلَبِ
يَا رَائِدَ الأَدَبِ الْغَالِى وَبَاعِثَهُ   وَقَائِدَ الْجِيلِ لِلْعَالِى مِنَ الرُّتَبِ
وَالْعَبْقَرِىّ الَّذِى يَجْلُو رَوَائِعَهُ   فَيَسْبَحُ الْفِكْرُ فِى تَيَّارِهَا اللَّجَبِ
أَسْدَيْتَ لِلضَّادِ مَا حَلَّى مَفَارِقَهَا   وَزَانَ مَبْسِمَهَا بِالدُّرِّ وَالشَّنَبِ[1]
أَدْنَيْتَ مِنْهَا قُطُوفًا طَالَمَا قَصُرَتْ   عَنْهَا الأَيَادِى وَلَوْلاَ أَنْتَ لَمْ تَطِبِ
وَجُلْتَ فِى رَحَبَاتِ العِلْمِ مُنْطَلِقًا   بِالعَقْلِ لاَ تَشْتَكِى فِيهَا مِنَ اللَّغَبِ
بِهِمَّةٍ غَارَ مِنْهَا الشِّيْبُ وَانْقَطَعَتْ   لَهَا عَزَائِمُ مِنْ يَصْبُو وَلَمْ يَشِبِ
وَفَيْتَ لِلضَّادِ يَا أَوْفَى البَنِينَ لَهَا   وَطِبْتَ نَفْسًا بِمَا أَسْدَيْتَ مِنْ قُرَبِ
بَعَثْتَ فِيهَا كَعِيسَى عِنْدَ رَقْدَتِهَا   بِمُبْدَعَاتِ الحِجَى وَالمَنْطِقِ الذَّرِبِ
فَأَيْنَعَتْ وَزَكَتْ جَنَّاتُهَا وَبَدَتْ   حَسْنَاءَ تَرْفُلُ فِى أَثْوَابِهَا القُشُبِ
وَشَعَّ فِكْرُكَ فِى الآفَاقِ يَغْمُرُهَا   نُورًا وَيَنْسَابُ مِثْلَ الجَدْوَلِ السَّرِبِ
لَوْ قِيلَ لِلْعِلْمِ مَنْ يَغْشَى مَجَاهِلَهُ   وَلِلْمَحَافِلِ مِنْ صَنَّاجَةُ العَرَبِ ؟
لَقِيلَ طَهَ أَبُوهَا وَابْنُ بَجْدَتِهَا   وَفَارِسُ الأَدَبِ النَّزَّاعُ لِلْقَصَبِ
أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْقَوَافِى وَهْىَ صَادِقَةٌ   وَالشِّعْرُ فِيكَ يُجَافِى وَصْمَةَ الكَذِبِ
يَا طَالِعَ السَّعْدِ فِى عِيدِ الفِدَاءِ لَقَدْ   نَزَلْتَ أَهْلاً وَسَهْلاً مَمْرَعَ الجَنَبِ

---

(1) الشَّنَب : جمال الثغر ، وجمال الأسنان

وَزُرْتَ شَعْــبًا عَــرِيقًا فِى حَضَارَتِهِ   يَزْهُو-كَمِصْرٍ-بِمَا قَدْ شَادَ مِنْ قُبَبِ
وَمَا ابْــتَنَى مِنْ مَبَانِى العِلْمِ شَامِخَةً   وَمَا أَقَــامَ لِنُورِ الفِكْرِ مِنْ نُــصُبِ
يَزْهُو بِأَمْجَادِهِ الْكُبْرَى الَّتِى شَرُفَتْ   بِهَا البُطُولَةُ مِــنْ أَبْــنَائِهِ النُّــجُبِ
فَقُــلْ لِمِصْرَ وَقُلْ لِلْعُرْبِ إِنَّ لَهُمْ   فِى المَغْرِبِ الْحُرِّ مَجْدًا نَاطِحَ السُّحُبِ
وَاحْمِلْ تَحِيَّــتَنَا يَا خَيْرَ مَنْ بُعِثَتْ   بِهِ التَّــحَايَا وَأَوْفَى مُكْــرَمٍ وَأَبِ
إِلَى العُــرُوبَةِ مِنْ شَعْبٍ وَمِنْ مَلِكٍ   وَاسْــلَمْ لَنَا وَلِخَيْرِ الضَّــادِ وَالأَدَبِ

عن ديوان الشاعر الحلوى بخطه
وقد نشرتها مجلة دعوة الحق فى عددها الأول
من السنة الثانية ربيع الأول ١٣٧٨ = شتنبر ١٩٥٨

الملحق السادس:

من استجوابه: عن مجلة الإذاعة الوطنية، يوليه ١٩٥٨

ألقى مندوب الإذاعة الوطنية الأسئلة الآتية على الدكتور طه حسين فتفضل معاليه بالإجابة عنها :

سؤال : أثرتم فى محاضرتكم الأولى مكانة الأدب العربى بين الآداب العالمية . فهل لكم أن تحددوا وضع أدبنا بين هذه الآداب فى العصر الحديث وهو فى وسعه اليوم أن يسهم بنصيبه فى نماء التراث العالمى ؟

الجواب : أما فى العصر الحديث فقد أشرت فى آخر المحاضرة إلى أن من الواجب علينا أن نمكن أدبنا من أن يكون قادرًا على أن يسهم فى ترقية الحضارة كما تسهم الآداب الكبرى فى ترقيها .

أما فى العصر القديم فقد قلت غير مرة فى محاضراتى وكتبى إن أدبنا العربى القديم يحتل منزلة ممتازة ، فهناك أدبان قديمان بقيا على وجه الدهر ، أحدهما الأدب اليونانى والآخر الأدب اللاتينى .

وقد قلت إن أدبنا العربى يأتى بعد الأدب اليونانى مباشرة ، لأنه أدب أصيل من جهة ولأنه كان أدب أمةٍ تحتل العالم القديم كله أو أكثره على أقل تقدير . وأنه قد أتيح له من البقاء مثلما أتيح للآداب القديمة الأخرى ، وأنه بعد هذا كله أو قبل هذا كله ، إن شئتم ، قد استطاع بلغته وبخصائصه أن يقهر آدابًا محلية كثيرة فى الشرق والغرب أيضا . فهو فى الغرب قد قهر الآداب اللاتينية فى إسبانيا وهو فى الشرق قد قهر آدابا ولغات مختلفة .

فأدبنا العربى كما قلت فى غير كتاب وفى غير محاضرة يأتى بعد الأدب اليونانى القديم ولا تستطيع الإنسانية أن تستغنى عنه ولأجل أن

أبين لكم بأن الإنسانية لا تستطيع أن تستغنى عنه ألفت نظركم إلى أن هذا الأدب العربى القديم وما نشأ عنه من أدب عربى حديث ، إنما هو أدب أمة عربية مهما تختلف أوطانها ومهما تختلف مذاهبها فى السياسة، فهى أمة توحدها لغتها وتوحدها خصائصها المختلفة ، وهى لا تقل عن ما يقرب من مائة مليون من الناس ، وإذا كانت الإنسانية تستطيع أن تستغنى عن هذه الملايين التى تقرب من المائة فهى لا تستطيع أن تستغنى عن أدب هذه الملايين .

إنما أدبنا الحديث يحتاج إلى جهد عنيف هو الذى دعوتكم وما زلت أدعو الأمة العربية كلها إلى بذله ليكون قادرًا على أن يقف موقفًا يشبه الأدب القديم ويمكن أن يوازن بالآداب الكبرى فى هذا العصر الحديث .

سؤال : نلاحظ تقهقرًا فى الشعر العربى بالنسبة لما كان عليه منذ عشرين سنة . فما رأيكم ؟ وما هى الأسباب ؟

الجواب : أظن أن أسباب تقهقر الشعر العربى ترجع إلى أشياء مختلفة ، بعضها عامة ، فالشعر يتقهقر فى كثير جدًا من الأمم ، لا فى الأمة العربية وحدها ، وذلك أن هذا العصر الذى نعيش فيه ليس عصر شعر ، وإنما هو عصر العلم وعصر العقل وكما تعرف ، العقل ينتج نثرًا ولا ينتج شعرًا !

فكما أن الشعر فى البلاد الغربية قد ضعف أمره ، فهو عندنا قد ضعف أمره ، وهناك سبب آخر ، وهو أن قوة الشعر التى أتيحت لنا

فى العصر الحديث إنما كانت قوة الشعر التقليدى ، الشعر الذى كـان يقال على مذهب الشعراء القدماء وقد عَرَفَتْ مصر بنـــوع خـــاص شعراء امتازوا وبعد صيتهم وعرفوا خارج حدود مصر ، عرفت مصر حافظا وعرفت شوقى وعرفت البارودى ، ولكن هؤلاء جميعًا كـانوا مقلدين ، كانوا ينظرون دائمًا إلى الشعراء القدماء .

من أراد منهم أن يكون مجددًا نظر إلى شعراء العباسيين ، ومـــن أراد منهم أن يكون محافظًا نظر إلى الشعراء الإسلاميين والجـــاهليين ، ولم يكن لهؤلاء الشعراء حظ ممتاز من الثقافة الحديثة ، لم يقرؤوا شـــعراء الغرب وقد قرؤوا من الآداب الغربية أطرافا تطول أحيانا وتقصر غالبًا ولكنهم لم يتأثروا بالثقافات الغربية تأثرًا كافيًـــا .فكـــان شـــعرهم تقليديًا، وقل مثل هذا فى الشعر الذى كان يقال فى العراق ويقـــال فى سورية . كل هذا الشعر كان شعرًا يقلد به القدماء ، وقـــد انتـــهت مدرسة القدماء وبقيت طائفة من الشعراء مازالت تقول هذا الشـــعر التقليدى ولكن الأمة العربية محتاجة إلى أن يجدد الشعر ، ولأجـــل أن يجدد الشعر يجب أن تجدد الثقافة ولأجل أن تجدد الثقافـــة يجـــب أن يشيع العلم باللغات والآداب الأجنبية ، ويجب أن يكون بيننـــا مـــن يتعمقون هذه اللغات وهذه الآداب الأجنبية .

وكل هذا لم يتح لشبابنا إلى الآن ، وعليكم أنتم ، معشر الشباب، أن تتقنوا اللغات الأجنبية دون أن ينسيكم هذا لغتكم العربية ، عليكم أن تتقنوا لغتكم أولا وتراثكم أيضا، ثم عليكم بعد ذلك أن تضيفـــوا إلى

ما ورثتم عن آبائكم علمًا جديدًا باللغات الأجنبية والآداب الأجنبية وأن تتعمقوا هذه اللغات والآداب تعمقًا يتيح لكم أن - لا أقول تقلدوها - تأتوا بخير مما فيها إن استطعتم . فهذا هو الذى ينقصكم ليكون عندكم نثر ممتاز وشعر ممتاز أيضا . فلا تسألونى أنا عن هذا واسألوا أنفسكم : أقادرون أنتم على أن تتقنوا لغتكم وآدابكم ، ثم على أن تتقنوا بعد ذلك لغات وآدابًا أجنبية ، فإذا كان الجواب نعم فثقوا أنكم ستنتجون شعرًا ونثرًا جديدين ممتازين ، وإن كان الجواب لا فستظلون مقلدين كما كان الذين سبقوكم منذ عشرين أو ثلاثين عامًا !

سؤال : لم يضف إلى لائحة أعلام الآداب فى الشرق العربى اسم جديد منذ جيل تقريبًا . فهل يمكن أن نطمئن إلى من يخلف هذه الطبقة ؟

الجواب : تستطيع إن شاء الله أن تطمئن بالشرط الذى قلته آنفًا ، هو أن نحرص على أن نتقن تراثنا العربى ، ونضيف إلى إتقانه العلم والأدب والحديث واللغات الحديثة.

أما من غير ذلك فلا تنتظر خيرًا !

سؤال : ما رأيكم فى الأدب الملتزم ؟ ألا ترون فى الالتزام تقييدًا لحرية الأديب؟ وهل يجب أن يكون الأديب العربى ملتزمًا فى العصر الحاضر؟

الجواب : كل أديب ملتزم ، ومسألة الالتزام هذه مسألة من جهة فى غاية اليسر ومن جهة فى غاية التعقيد ، هى يسيرة كل اليسر إذا أخذناها أخذا طبيعيًا .

فكل أديب يلتزم حياة البيئة التى يعيش فيها ، وهو لا يستطيع أن يخرج من بيئته، وأذكر - إن شئت - قول أبى العلاء :

وَهَلْ يَأْبَقُ الإِنْسَانُ مِنْ مُلْكِ رَبِّهِ فيخرج من أرض له وسماء؟!

فأنت عربى لا تستطيع أن تخرج من عروبتك مهما تفعل ، وأنت مغربى لا تستطيع أن تخرج من مغربيتك مهما تفعل . وأنت تعيش فى هذه البيئة ولا تستطيع أن تخرج منها مهما تفعل ، فإذا أنتجت شعرًا أو نثرًا فسيكون عربيًا وسيكون مغربيًا وسيتأثر ببيئتك وبتراثك القديم وبالعصر الذى أنت فيه .

وأنت من هذه الناحية ملتزم ، وكل أديب بهذا المعنى فهو ملتزم أيضا، إنما إذا نظرت إلى الالتزام على أنه التزام سياسى ، فهذه هى الطامة الكبرى ! ذلك أن الالتزام السياسى معناه قتل حرية الفن ! والفن يجب أن يكون حرًا ، وأنا خاصة لا أتصور الفن إلا حرًا ولا أحب أن تصدر إلى أوامر السياسة بأن أقول فى هذا الموضوع وألا أقول فى ذاك!!

وفى العالم الآن هذان المذهبان : مذهب الالتزام اليسير الطبيعى الذى لم يبرأ منه أديب ولا كاتب ولا شاعر ، ومذهب هذا الالتزام السياسى الذى جاءنا من الغرب الأوروبى ثم وصلت أطراف منه إلى البلاد العربية ، هذا الالتزام السياسى إنما جاء من البلاد الشيوعية .

فالبلاد الشيوعية هى التى تسيطر على العقل ولا تريد أن يكتب الكتاب ولا أن ينشئ الشعراء شعرهم ولا أن يصور المصورون ولا أن ينحت المثالون إلا فى نطاق الحدود التى يرسمها الحزب الشيوعى

والمذهب ، فهذا الالتزام بهذا المعنى شيء ممقوت بالطبع وهو يعادى حرية الفن ويقتل الفن ولا ينتج إلا كلامًا رسميًا ترضى عنه الدولة !

وإذن فهناك هذان النوعان من الالتزام ، التزام طبيعى لا يبرأ منه كاتب ولا شاعر ، والتزام تفرضه السياسة يجب أن يبرأ منه كل صاحب فن حر !

الملحق السابع:

مقال للدكتور طه حسين

نشرته جريدة (الجمهورية) المصرية

فى عددها ٢٩/٧/١٩٥٨

أرض البطولة!

لم تكد السفينة تبلغ مرساها فى جبل طارق حتى رأينا أنفسنا محاطين بجماعة كريمة من المغربيين والمصريين قد تفضلوا فأقبلوا للقائنا وأبى عليهم كرمهم أن ينتظرونا فى المغرب فعبروا المضيق أو الزقاق كما كان القدماء يقولون للقائنا فى الأرض الإسبانية التى يحتلها الإنجليز .

وكنا قد قضينا فى تلك السفينة ثلاثة أيام كاملة لا نسمع العربية إلا من أنفسنا حين يتحدث بعضنا إلى بعض وإذا نحن الآن لا نسمع إلا العربية التى أخذتنا من جميع أقطارنا، فريق يتحدثها فى أناةٍ وهدوء وهم المصريون وآخرون يتحدثونها فى لهجة سريعة قوية كأن ألفاظها تنحدر وتصطك فى تحدرها من القمة إلى السهل وهم المغربيون [1] .

ونحن بين أولئك وهؤلاء حائرون لا ندرى كيف نجيب ولا على من نجيب ثم يتقدم مستشارنا الثقافى فيعرفنا إلى المستقبلين ويعرفهم إلينا ، منهم من يمثل وزارة الخارجية المغربية ، ومنهم من يمثل وزارة التربية والتعليم المغربية أيضًا ومنهم من يمثل حاكم طنجة. ومنهم من أقبل ليحيى عهدًا بأستاذه القديم الذى عرفه فى جامعة القاهرة حين كان يختلف إلى دروسه فى كلية الآداب، وآخرون أرسلتهم سفارتنا للقائنا قبل أن نبلغ المغرب .

ولست أدرى كيف اختطفنا هؤلاء السادة واختطفوا معنا أمتعتنا ونقلونا من سفينتنا تلك الضخمة الفخمة إلى سفينة صغيرة عبرت بنا المضيق إلى العدوة المغربية ، بل لست أدرى كيف عبرنا هذا المضيق ، فقد رأيتنى غارقًا فى الحديث مع هؤلاء السادة كأنى لم ألقهم منذ وقت قصير، وما هى إلا أن نبلغ العدوة

---

(١) كان الأستاذ سعيد العريان يعت اللهحة المعرية بأها " قذائفية " !

المغربية فنخطف من سفينتنا الصغيرة إلى السيارات التى تمضى بنا مسرعة لا تلوى على شىء حتى تبلغ بنا بيت الحاكم ، وهناك أعلم أننا ضيف على الحاكم سنقضى عنده ما بقى من النهار وسنقضى عنده الليل أيضًا وسنغدو مع الطير لنبلغ الرباط قبل الظهر فى الغد ، لأن جلالة الملك قد تفضل فقرر أن يستقبلنا ظهر اليوم الذى نبلغ فيه الرباط كأنه يلقانا فى عاصمة ملكه تكريمًا لبلادنا ولنا . وقد جرت الأمور حسب البرنامج الموضوع ، وشرفنا بلقاء الملك وسمعنا من جلالته خير ما يحب المصرى أن يسمع عن وطنه وعن حكومته . وخير ما يحب كاتبٌ متواضع مثلى أن يسمع من تحية وثناء يصدران من رجلٍ عظيم بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها .

لم يكتسب عظمته من الملك وإنما اكتسب عظمته من نفسه ، من إبائه للضيم وصبره على المكروه واستبساله فى مقاومة العدو واحتماله إذايته لا لشىء إلا أن يكون ملكًا كريمًا لوطن كريم ، بذل هذا الجهد كله واحتمل هذا المكروه كله وهو مؤمن بأنه لم يصنع شيئًا ذا خطر وإنما أدى أيسر ما يجب على المواطن المخلص للوطن الحبيب ، ولا أكاد أذكر لجلالته بعض ذلك حتى يُحوّل الحديث فى يسر وسماح كأنه لا يحب أن يثنى عليه أحد لأنه أدى إلى وطنه بعض ما يجب عليه !!

ونخرج من حضرة الملك مكرمين شاكرين فلا نكاد نبلغ الفندق ونقضى فيه ساعات قليلة حتى نغرق فى حفاوة المغرب بنا وإكرام المغرب لنا ، ونظل غرقى فى هذا الكرم وتلك الحفاوة أسبوعين كاملين ولا نعود إلى أنفسنا أو لا تعود أنفسنا إلينا إلا بعد أن يردنا الذين أخذونا من سفينتنا إلى هذه السفينة

نفسها بعد أن بلغت تلك الأرض الإسبانية التى يحتلها الإنجليز وهى جبل طارق.

الحديث عن المغرب الأقصى شاق عسير لأنه متشعب لا يدرى الكاتب من أين يبدؤه ولا إلى أين ينتهى به . ففنونه كثيرة وألوانه مختلفة لأن المغرب الأقصى نفسه على وحدته وائتلافه وانسجامه واتساق أموره كلها ، مختلف أشد الاختلاف. إن أردت أن تتحدث عن طبيعته وجدت فيه البحر والمحيط والسهل والجبل والغابات والبحيرات وما إلى ذلك من هذه الطبيعة الواحدة المتعددة وإن أردت أن تتحدث عن حضارته وجدت فيه ألوانا مختلفة من الحضارة : لونًا مغربيًا خاصًا توارثه أهل المغرب منذ كانوا قبل أن يصل الرومان إلى بلادهم فضلا عن العرب وقبل أن تكثر الصلات بينهم وبين الأمم المختلفة، ولونًا عربيًا خالصًا صفوًا فما أعرف بلدًا حافظ على التراث العربى رغم ما اختلف عليه من الأحداث وما تتابع عليه من الخطوب كالمغرب الأقصى ، ولونًا أوروبيًا بعضه يصور الحضارة الفرنسية كما هى الآن وبعضه يصور الحضارة الإسبانية كما هى الآن أيضا ، وبعضه يصور ما تنتجه الحضارة الأمريكية المعاصرة .

وإن أردت أن تتحدث عن أهله وجدتهم ، على اتحادهم وائتلافهم متميزى الاختلاف : منهم المحافظ الممعن فى المحافظة ، ومنهم المجدد المغالى فى التجديد ، ومنهم الذين يلائمون أروع ملاءمة بين الجديد والقديم، وينشئون بهذه الملائمة فى أنفسهم وفى بيئتهم نوعًا من الموسيقا المستعذبة فى النفوس المحببة إلى القلوب، وإذا أردت أن تتحدث عن السياسة وجدت المشكلات المعقدة أشد التعقيد التى

يتصل بعضها بسياسة المغرب مع فرنسا . ويتصل بعضها بسياسة المغرب مع إسبانيا ، ويتصل بعضها بسياسة المغرب مع أمريكا ، ويتصل بعضها بسياسة المغرب مع سائر البلاد العربية الأخرى .

فالمغرب الأقصى عربى على رغم الاستعمار الفرنسى وعلى رغم المحلولات الفرنسية العتيقة لصرفه عن العروبة وتزهيده فيها ، والتقصير به عنها ، هو عربى بأقوى ما تدل عليه هذه الكلمة ، حريص أشد الحرص على التراث العربى المشرقى والمغربى والأندلسى ، دارس لهذا كله مؤمن بهذا كله أشد الإيمان وأقواه . هو بعد ذلك مؤمن بحاضر العروبة ومستقبلها ، عالم بكل ما يحدث فى الوطن العربى من ألوان التطور السياسى والاجتماعى والثقافى وهو من البلاد العربية التى تقرأ كتب المصريين أكثر مما يقرؤها المصريون أنفسهم [١] .

ليس من اليسير إذن أن يتحدث كاتبٌ عن المغرب الأقصى بعد أن يقضى فيه أسبوعين لا أكثر لكثرة فنون الحديث عنه ولحاجة الكاتب أن يتنقل فيه فيكثر التنقل ويتحدث فيه إلى الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم فيكثر التحدث ، ومع أن شيئا من ذلك قد أتيح لى فإنه لا يبلغ أن يعطينى من العلم بشؤون المغرب ما يسمح لى بالتحدث عن هاته الشؤون فى ثقة وأمنٍ من الخطأ والزلل ، على أن هناك شيئًا يستطيع الكاتب أن يقوله وهو مطمئن إلى أنه لم يخطئ و لم يزِلّ ، ذلك أن الذى يزور المغرب الأقصى بعد استقلاله إنما يزور وطنًا من أوطان البطولة حقًا ، فمن أعسر الأشياء وأشقها أن نتحدث إلى رجل

---

[١] تذكرنى شهادة طه حسين هذه فى الفقرة التى أجاب بها جلالة الملك الحسن الثانى فى شهر مايو ١٩٩٧ أحد كبار الصحفيين المصريين وقد سأله : عن عياب الكتاب المصرى بالمغرب " كان جواب العاهل المغربى : " إن حضور الكتاب المصرى بالمغرب أكثر بكثير من حضور الكتاب المغربى فى مصر " جريدة الأنباء) ٢٦ مايو ١٩٩٧ .

من رجال الحكم ، أو من رجال الثقافة الحديثة أو من المحافظين على الثقافة القديمة أو من عامة الناس إلا عرفت أن له بالسجن عهدا ! وأنه قد ذاق من الفرنسيين ألوان المحن وفنون العذاب ، وهم يتحدثون إليك بذلك بَاسِمين مطمئنين إلى أنهم لا يحدثونك بشيء غريب ، وإنما يتحدثون بشيء ملائم أشد الملاءمة لطبيعة الأشياء. فهم كانوا طلاب استقلال ، وكانوا يعلمون حق العلم أن من طلب الاستقلال وجب عليه أن يؤدى ثمنه غاليًا ، قد يكون السجن الطويل وقد يكون العذاب ، وقد يكون النفى وقد يكون الموت أحيانًا ، كانوا يعلمون هذا كله ويطلبون الاستقلال مع ذلك ويؤدون ثمنه مهما يكن مُبهِضا ثقيلا .

وقد ظفروا باستقلالهم فلم يدركهم [1] ولم يغرهم عن أنفسهم ولم يظنوا أنهم قد أتوا بالمعجزات وإنما هم متواضعون يتحدثون إليك فى يسر بأن الاستقلال ليس إلا الخطوة الأولى وبأن بعد هذه الخطوة خطوات كبيرة أخرى ليست سهلة ولا ميسرة وإنما هى محتاجة إلى الجهد أشد الجهد وإلى الجهاد أشد الجهاد . فهم قد استقلوا ولكن الجيوش الأجنبية لم تجل عن بلادهم بعدُ جلاء تامًا . وهم قد استقلوا ولكنهم وجدوا أمامهم شعبًا أميًا لم يعلمه المستعمرون ، وليس له بد من أن يتعلم ، ومن أن يتعلم فى أسرع وقت ممكن ، وعلى أحسن وجه ممكن . وهم قد استقلوا ولكنهم وجدوا أن الفرنسيين قد آثروا أنفسهم بالخير كله، وليس من بد أن يرد إلى هذا الشعب المستقل حقه الكامل فى ثمرات

[1] يلاحظ أن هناك ستة سطور تحت كل صلع من الأصلاع السه لم تصور كما يجب .. (صفحة ٣) فلم يهتد لترميمها .

أرضه على اختلافها وليس هذا بالشيء اليسير الذى يجب أن يطلب لينال وإنما هو محتاج إلى الجهد المتصل والوقت الطويل والمال الكثير، وهم مع ذلك يستقبلون حياتهم باسمين لها ويستقبلون مشكلاتهم مصممين على حلها. يأخذون أمرهم بالعزم والحزم والرفق فهم يؤمنون بأن الجهود يجب أن تبذل، ويؤمنون مع ذلك بأن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى. فهم يحققون آمالهم فى أناة ويسمون إلى الرقى فى رفق. ويعلمون أن لكل شيء إبانة ويبلغون مع ذلك من الإصلاح شيئًا كثيرًا، وحسبك أن تعلم أنهم حين استقلوا لم يجدوا فى المدارس إلا مائتى ألف من التلاميذ فلم يمض عامان على الاستقلال حتى بلغ عدد التلاميذ الذين يتعلمون فى المدارس سبعمائة ألف! ومعنى ذلك أنهم هيؤوا كل شيء فى أقل من عامين لتعليم نصف مليون من أبناء الشعب.

ومثل آخر لابد من أن أذكره وهو أن أهل المغرب الأقصى سبقونا كما سبقنا التونسيون إلى إصلاح التعليم الدينى فنفذوا تلك الخطة التى دعوت إليها فى مصر منذ حين فاتهمت بالكفر والإلحاد والخيانة والمروق، وهى أن يتعلم التلاميذ تعليمهم الابتدائى والثانوى فى المدارس الثانوية ثم يذهب منهم من شاء إلى جامعة القرويين أو غيرها من معاهد التعليم الدينى والتخصص فى علوم الدين وفى علوم اللغة العربية أيضا.

فعل ذلك التونسيون كما قلت ذلك فى الجمهورية بعد زيارتى لتونس فى العام الماضى، وفعله أهل المغرب الأقصى. وتحدث إلى به الزعيم علال الفاسى فى يسر وسماح وشيء من الرضا والاعتزاز أيضًا [1]

---

[1] د. التازى: تاريخ جامعة القرويين، طبعة بيروت ١٩٧٢ ج ٣ ص ٧٧٧.

هذه لمحات خاطفة أسجلها الآن فى هذا الحديث القصير بعد أن عدت من رحلتى السريعة للمغرب الأقصى ولكن هناك أشياء أخرى تحتاج إلى أن أتحدث عنها فى أناة وهدوء ، ولابد من أن أفرغ لها ومن أن أتحدث عنها ليعتبر بها المعتبرون وليفكر فيها الذين يعنون بحفظ التراث العربى وإحيائه والذين يعنون بأن يتحقق للعالم العربى ما ينبغى له من الاستقلال والرقى وما ينبغى له مع ذلك من اجتماع الكلمة واتحاد الآراء وائتلاف الأهواء . وليس لى بد من أن أهدى أجمل الشكر وأصدقه إلى حكومة المغرب التى دعتنى إلى زيارته وإلى وزير التربية والتعليم فى الجمهورية العربية المتحدة الذى يسر لى هذه الزيارة ودفعنى إليها دفعًا وأتاح لى أن أقضى أسبوعين فى أرض البطولة ووطن الأبطال .

الملحق الثامن :

صفحة من مذكرات السيدة سوزان حرم الدكتور عن زيارته للمغرب

... أما فى المغرب ، فكان هو المرحلة الأخيرة من الطريق الذى كان يحمل طه على امتداده غالبًا تحية مصر وكلمتها ، وأتطلع برضا إلى صورة يبدو فيها الملك محمد الخامس وهو يعانقه . كان الوجهان معا جميلين .

لقد أبحرنا إلى طنجة ، واصطحبونا إلى مقر حاكمها بأقصى سرعة محفوفين بجنود على درجاتهم البخارية التى لا تكف بفرقعتها العالية وبصفارات حادة تثقب الأسماع ، إنه أمر معتاد بالنسبة لكبار هذا العالم – ولم نكن منهم – ولهذا سررنا عندما تخلصنا من هذا الضجيج الكثير .

كانت دار الحاكم دارًا ساحرة ، وكانت أعلى من المدينة ، وكنا نلمح عبر أشجار أوكاليبتوس والصنوبر على شرفاتها البحر ومضيق جبل طارق . كان مضيفونا تجسيدًا للطف . أما فى الرباط ، فقد سمحت لنفسى – لأن طه لم يكن حرًا كما هو واضح – بالقيام بنزهة شاعرية ومتوحدة ، أمام المحيط الذى لم أره منذ سنوات عديدة .

وفى الدار البيضاء ، بعد أن ألقى حديثه ، احتفظوا به وقتا طويلا بحيث إننى وقد رأيته تأخر عن العودة بت هلعة من القلق ...

وقد كان مفعمًا فرحًا إذ وجد نفسه فى فاس ، كان السيد علال الفاسى معنا . وتدبرنا أمرنا للحصول على السيارة الصغيرة التى كانت فى خدمة الملك قبل فترة من ذلك الوقت ، فسيارة عادية لا تستطيع السير فى هذه المدينة ، كما أنه لم يكن من الممكن أن يخاطر طه بالسير وقتًا طويلا فى طرقات ضيقة تفصل بينها سلالم غير منتظمة ، فى جو حار جدًا ، فيتعب ويرهق . إذ إننا كنا فى شهر يونيه .

وعصر ذات يوم ، صعدنا إلى مدينة صغيرة تقوم على الطريق إلى الأطلس، لم يكن لدينا وقت كاف ، للأسف ، للمضى صعدًا فى هذه الجبال . كان الجو جميلا ونديًا ، وكان المنظر يختلف تمامًا عن منظر مدينة فاس الذى يتسم بالخشونة العارية ! وكان هناك رجل لطيف ، أعتذر عن عدم تذكرى اسمه ، يملك دارة استقبلنا فيها بأروع ما فى العالم من طرق فى الاستقبال ، وكنت سعيدة لتنزهى فى إحدى هذه الحدائق ذات المسطحات المتدرجة التى أحبها كثيرا والتى كانت مزروعة بأشجار الصنوبر والسرو . كان ظل الأوراق الضعيف على مياه المسبح الزرقاء يرسم صوراً غير مستقرة فى حين كانت تطفو بعض الأغصان الصغيرة .

ودُعى طه للحضور إلى تطوان ، فوجب الذهاب إليها . واجتزنا خلال وقت طويل- على الأقل بدا لى طويلا - مساحات واسعة قاحلة . كان الطلاب مرحين ودودين ، ولن أنسى أننى تلقيت منهم عند وفاة طه رسالة مؤثرة جدًا .

لم أتمكن من شراء شيء مهم من المغرب ، لكنى حملت معى على كل حال دثاراً صغيرا جميلا أبيض اللون مطرز الحواف باللون الأزرق ، خاصا بطفل رضيع هو طفله مؤنس (١)

(١) مؤنس هو ابن الدكتور طه حسين وقد تزوج بليلى حميدة أمير الشعراء أحمد شوقى، وقد تزوجت ابنته أمينة بالدكتور محمد حسن الزيات الذى وقع عليه اختيار جلالة الملك الحسن الثانى ليكون عضوًا معا فى أكاديمية المملكة المغربية

صور تذكارية ومقالات عن
الدكتور طه حسين
أثناء وجوده بالمغرب

وسام الكفاءة الفكرية للدكتور طه حسين

انعم جلالة الملك على الدكتور طه حسين بمناسبة زيارته اعلا درجة من وسام الكفاءة الفكرية الذى خصصه صاحب الجلالة من الاوسمة الجديدة لذوى الكفاءة من العلماء والادباء والاطباء والفنانين ورجال الفكر .
وان الدكتور طه حسين اول من قلد هذا الوسام العلمى السامى

سمو ولي العهد يتوسط السيد محمد الفاسي والسيد محمد بوستة

ألقى الدكتور طه حسين أمس في قاعة العلوم بالرباط محاضرة قيمة عن مكانة الأدب العربي بين الآداب العالمية

سمو ولي العهد يكرم الدكتور طه حسين

الدكتور طه حسين في حفلة وزارة الخارجية

الدكتور طه حسين مع نخبة من
المثقفين ومعه حرمه الى يساره
وعامل مدينة طنجة الى يمينه

الدكتور طه حسين يصل يوم الاربعاء

الى المغرب لالقاء سلسلة من المحاضرات بدعوة من وزارة الخارجية

الرباط (٢٠ يونيه لمراسلنا) اعلن رسميا أن عميد الادب العربي الدكتور طه حسين سيصل الى المغرب فى مستهل الاسبوع القادم بدعوة من وزارة الشؤون الخارجية لالقاء

البقية ص ٤

المغرب

حل بالمغرب في العقد الثاني من شهر ... الفارط زيارة عميد الادب العربي ، الدكتور طه حسين ، الذي لبى استدعاء وزارة الشؤون الخارجية ، وقام بهذه الزيارة التي طاف خلالها بالرباط والدار البيضاء ومراكش وفاس ومكناس وطنجة وتطوان . ولقد كان حضوره حيثما حل محط حفاوة المغاربة واكبارهم ، لمكانته البارزة بين اعلام الادب العربي ، ولمواقفه المشرفة التي وقفها في الدفاع عن قضايا الشمال الافريقي

ولم ينس له احد في المغرب ذلك الموقف الرائع الذي وقفه في الدولة والنيل حينما ارجع الى الحكومة الفرنسية وسام جوقة الشرف الذي كانت قد منحته اياه ، احتجاجا منه على استهدافها بالحرمات الاسلامية في المغرب

ولقد كان من جملة العبارات التي خاطبه بها جلالة الملك عندما استقبله بقاعة العرش ، في يوم وصوله الى الرباط ، قول جلالته :

« اننا والشعب المغربي ، نذكر دائما مواقفكم في ايام محنة المغرب ، ودفاعكم المجيد عن قضية المغرب ، مما كان له الاثر المشجع لنا على المضي في كفاحنا الى النصر » .

وتقديرا لهذه المواقف النبيلة ، وللايادي البيضاء التي اسداها لهذا المغرب الكبير للادب العربي ، انعم عليه جلالة الملك بوسام الكفاءة الفكرية ، وهو من بين الاوسمة الجديدة التي خصصها جلالة الملك لذوي الكفاءة من العلماء والادباء والاطباء والقضاة ورجال الفكر ، ولقد كان الدكتور طه حسين اول من نال هذا الوسام

وخلال مقامه بالمغرب ، تفضل بالقاء سلسلة من المحاضرات في مدن مختلفة ، كانت اولاها هذه المحاضرة التي ننشر فيما يلي معالم لقرائها ، والتي تناول فيها موضوع « الادب العربي ومكانته بين الآداب العالمية » .

وقد القيت هذه المحاضرة في يوم الجمعة ٢٧ شتنبر ١٩٥٨ ليلا ، بقاعة المحاضرات لكلية العلوم بالرباط ، وكانت هذه القاعة غاصة بالشباب المثقف ورجال الفكر الذين كان في طليعتهم صاحب السمو الملكي الامير مولاي الحسن ولي العهد وطائفة من الوزراء واعضاء السلك الدبلوماسي

جريدة الحقيقة العدد

حضرة صاحب الجلالة

يقتبل الدكتور طه حسين

ويقلده وسام الكفاءة الفكرية

وصل الدكتور طه حسين فى نهاية صباح امس الى الرباط قادما من طنجة التى وصل اليها يوم الثلاثاء • واثر وصوله الى الرباط حظى بمقابلة صاحب الجلالة الملك المعظم وكان الدكتور طه حسين مصحوبا بمعالى رئيس الحكومة السيد احمد بلافريج وسفير الجمهورية المتحدة السيد اسعد محاسن وحضر المقابلة السيد احمد بنانى مدير التشريفات والسيد عبد الكريم غلاب رئيس قسم افريقيا واسيا بوزارة الخارجية والسيد بومهدى رئيس القسم الثقافى بنفس الوزارة والسيد عبد الهادى التازى عن وزارة التربية الوطنية •

وكانت المقابلة على جانب عظيم من الحفاوة والود فقد خاطب صاحب الجلالة الزائر الكريم قائلا انا نرحب فى شخصكم بعلم من اعلام الفكر العربى فى العصر الحاضر والمغرب متشرف بزيارتكم التى كان يتمناها منذ امد طويل ، ومن حسن الحظ ان جئتم الى هذا البلد بعد ما احرز حريته واستقلاله فتقدمتم لمشاهدة ما يبذله من جهود فى سبيل البناء والانبعاث

البقية ص ٤

جلالة الملك يقتبل الدكتور

ويقلده وسام الكفاءة

تابع ص ١

واجاب الدكتور طه حسين انى متاثر جدا ياصاحب الجلالة بهذه المقابلة التى انعمتم على بها ولى الشرف العظيم للمثول بين يدى جلالتكم اسم الذى قد تم معركة التحرير فى المغرب وعانيتم كثيرا من التضحيات والمشاق فى سبيل اسعاد الشعب المغربى والكل يعرف بالفضل العظيم الذى طوقتم به جيد العروبة بكفاحكم واستبسالكم الى جانب الشعب المغربى الابى

فعقب جلالة الملك على كلمة الدكتور قائلا نعتبر ان كل شخص مهما كانت مرتبته ينبغى ان يؤدى واجبه فى هذا المضمار ويذكر الشعب المغربى كذلك ما قمتم به ايضا من اعمال اثناء المحنة السياسية التى اجتازها المغرب ولا يزال

مدير التشريفات يكرم

وفى الليلة الماضية اقام السيد احمد بنانى مدير التشريفات الملكية مادبة عشاء فاخرة تكريما لعميد الادب العربى وحضر هذه المادبة ولى العهد الامير مولاى الحسن ورئيس الحكومة ووزير الشؤون الخارجية السيد احمد بلافريج وعميد الجامعة الاستاذ محمد الفاسى وسفير الجمهورية العربية المتحدة السيد اسعد محاسن وعدد من كبار موظفى الادارة •

وسام الكفاءة الفكرية للدكتور طه حسين

تابع ص ١

الحكومة ووزير الخارجية، وكان يرافق الدكتور اثناء هذا الاستقبال السيد اسعد محاسن سفير الجمهورية العربية وسكرتير الدكتور الخاص

وبعد ان جلس الدكتور ورفاقه عن يمين جلالة الملك قال جلالته مخاطبا الدكتور طه حسين :

انا نرحب بكم كعلم من اعلام الادب العربي ، وكاحد الاساتذة الذين كان لهم الفضل الكبير على جيل المثقفين الراهن ومن دواعي سعادة المغرب انكم قدمتم اليه بعدما حصل على استقلاله

فاجاب الضيف الكريم :

انه ليشرف لي ان آتي هذا البلد الذي استكمل استقلاله وان احظى بمقابلة بطل التحرير الذي ضحى بكل نفس ونفيس في سبيل استقلال بلاده، وانني مسرور بان ارفع الى جلالتكم تحية الجمهورية العربية وتحية رئيسها الجليل جمال عبد الناصر والجمهورية العربية كلها تقدر مواقفكم النبيلة في سبيل تحرير المغرب العربي

فعقب جلالة الملك على حديث الدكتور بقوله :

نعتبر ان كل شخص مهما كانت مرتبته يحتم عليه ان يقوم بواجبه في سعادة امته وحريتها

واننا وكذلك الشعب المغربي نذكر دائما مواقفكم في ايام محنة المغرب، ودفاعكم المجيد عن قضية المغرب مما كان له اكبر التشجيع لنا للمضي في كفاحنا الى النصر

وينبغي ان تعتبروا ان هذا البلد هو وطنكم لانه بلد عربي وجزء لا يتجزأ من العروبة

ثم بعد ذلك جرت مذاكرة بين جلالة الملك والدكتور طه حسين حول السفر وعن برامج رحلة الدكتور الى المغرب

وطلب جلالة الملك من السيد رئيس الوزارة ان يسهل للضيف الكريم جميع انواع الراحة حتى لا يتعب الاستاذ في اقامته هذه

ثم كلف جلالة الملك عميد الادب العربي ان يبلغ تحياته وتقديره الى شعب الجمهورية العربية وخصوصا الرئيس جمال عبد الناصر، واعرب جلالة الملك عن تمنياته ان يتاح الفرصة لتبادل الزيارات، وان يقدم الرئيس جمال الى المغرب عما قريب

وعلق السيد احمد بلافريج على ذلك بقوله :

اننا نرجو ان يتقبل الرئيس جمال زيارته لاستاذنا فسرور المغرب

فاجابه الدكتور طه حسين ان المغرب لذو مكانة تفرض له زيارة خاصة

فاجاب السيد الرئيس ستكون هذه الزيارة زيارة استطلاع ثم تعقبها الزيارة الخاصة

وهنالك قام جلالة الملك وقلد الدكتور طه حسين وسام الكفاءة الفكرية وخاطبه بقوله :

نقلدكم هذا الوسام الذي احدث في عهد الاستقلال ثم قدم جلالته للدكتور تهانئه

وهنا خرج الدكتور طه حسين من قاعة العرش فتقدم اليه الصحفيون طالبين منه ان يدلي لهم بتصريح حول ارتساماته بعد مقابلة جلالة الملك فصرح سيادته بما يلي :

انه شعور اقوى من ان يوصف فليس من السهل ان اؤدي ما اشعر به من عطف جلالة الملك وحسن شمائله ورقته

وهذه المقابلة التي ترفع من قدري وانا في مواقف الشكر اعجز الناس عن الافصاح عن شعوري بالاعتراف بالجميل مهما يكن الشخص او الاشخاص الذين اؤدي اليهم شعوري بالشكر، فكيف اذا كان هو حضرة صاحب الجلالة بطل الاستقلال، لا بالنسبة الى المغرب وحده، بل رمز الجهاد في سبيل الاستقلال في البلاد العربية

يمثلون الثقافة والفكر، ورجال الصحف والاذاعة، واعضاء جالية الجمهورية العربية المتحدة والجالية اللبنانية

ودامت الحفلة من الساعة السابعة حتى التاسعة مساء ·

حفلة عشاء

واقام السيد احمد باحنيني مدير التشريفات الملكية حفلة عشاء للدكتور طه حسين حضرها السيد رئيس الحكومة وبعض الوزراء والزعيم علال والدكتور اسعد محاسن وشخصيات اخرى

ويلقي الدكتور طه حسين اول محاضراته اليوم في كلية العلوم في الساعة التاسعة مساء ·

تنظيم الجامعة المغربية

الدكتور طه حسين في العام المقبل

التدريس الآداب

عميد الأدب العربي

الدكتور طه حسين وضيافة المغرب

مرحبا بطه حسين

لقد سر شبابنا سرورا عظيما بهذه الزيارة المباركة التي يقوم بها الدكتور طه حسين في المملكة المغربية وبتلك المحاضرات التي تفضل بالقائها في بعض المدن امام جمهرة المثقفين والطلبة وكان لها وقع جميل في النفوس . وقد انشرح صدر الكثيرين لهذه المناسبة السعيدة التي شاهدوا فيها الرجل الذي لايذكر التجديد في الادب العربي الحديث الا ذكر اسمه ولا يشاد بالحركة الفكرية العربية التحريرية الا كان اسمه على كل لسان . ان الدكتور طه حسين شغل حيز الادب العربي بجهاده واسدى الى العرب جليل الاعمال بافكاره وتوجيهاته النيرة ، وبمؤلفاته وابحاثه ومحاضراته العديدة . وحسنا فعلت وزارة الشؤون الخارجية باستدعاء هذا الاستاذ الكبير لزيارة شمت بحل الاحرار ويعترف بالجميل ، ولمشاهدة قطر عربي شقيق هو منه واليه .

وقد تفضل حضرته فخص مندوب الاذاعة الوطنية بالاستجواب الذي يجد القارىء الكريم في صفحة 10

. . . حل . . . هذا الباب . . . زيارة للمغرب رغم . . . اوانها . . . في عطلتها الصيفية ؛ وذلك الزيارة التي قام بها عميد الادب الذي يقدره — بدعوة من وزارة الدكتور ضيفا مكرما على المغرب في يوم 24 يونيه الماضي ، وغادره بعد عشرة ايام . وقد تشرف الدكتور بزيارة صاحب الجلالة سيدي محمد الخامس الذي وشح صدره بوسام الكفاءة الفكرية . وهو اول وسام من هذا النوع يمنحه العاهل الكريم الى اديب البلاد العربية الاول في هذا العصر . تقديرا لخدماته ومجهوداته في الحقل الادبي — الفكري ودفاعه المستمر عن العروبة . . . كفاح بعض اقطارها ضد الاستعمار . وخصوصا دفاعه المتواصل عن معركة التحرير المغربي التي . . . حسين . . . حسنا . وقد اقيمت على شرفه . . . واحتفالات عديدة في كل المدن . . . من جانب المسؤولين في الحكومة ، ورجال الفكر والثقافة ، والادب . وقد القى الدكتور . . . محاضرات في المدن الاتية : الرباط ، الدار البيضاء . . . فاس ، تطوان . والمتتبع لهذه المحاضرات . . . معاصرا . . . العربية . . . وملاحظاته . . . المحاضرات . . . الافكار والاراء . . . واحاديثه . . . العاشق . . . امام محاضراته . . . حل هذه

ندوة في مركز الثقافة العربي

نظم مركز الثقافة العربي التابع لسفارة الجمهورية العربية المتحدة في الساعة التاسعة والنصف من مساء امس ندوة استجابة لطلبات الادباء والمثقفين من شبابنا الذين رغبوا في الاتصال مباشرة بالاستاذ طه حسين لتعاد . . .

« عميد الادب العربي يحاضر في تطوان »

Les Lauréats

بقلم عبد اللطيف بوحسين

ويغادر المغرب

صبيحة يوم الاثنين ٧ يليه على الساعة الثامنة والنصف غادر عميد الادب العربي الدكتور طه حسين المغرب عن طريق ميناء طنجة متوجها . . . في طريقه الى ايطاليا ثم القاهرة . وقد . . . سيادته الى الميناء عامل المدينة وناحيتها الدكتور عبد اللطيف ابن جلون وعدة شخصيات ثقافية مهمة من طنجة ومن سفارة الجمهورية العربية المتحدة بعد ما قضى في المغرب اريد من اسبوعين ، هو والسيدة قرينته والاستاذ . . . شحاتة سكرتيره الخاص ضيوفا على وزارة الخارجية المغربية ، قضى اسيادته تلك الاسابيع متنقلا الى ادباء

المغرب واتجاهات الادب المغربي ومشاكله ، وتوجيهاته ومعرفا في نفس الوقت بالادب العربي الحديث ومشاكله . . . في محاضراته القيمة واتصالاته بمختلف الاوساط الثقافية والعلمية بمختلف مدن المغرب حيث كان

فهـــرس المحتـــويات

م	الموضـــوع	الصفحة
١	تصدير للدكتور *شوقي ضيف* رئيس المجمع	أ
٢	مقدمة للدكتور عبد الهادي التازي عضو المجمع...........	ج
٢	الدكتور طه حسين بالمغرب ، دوره في صحوة الفكر..............	١
٤	الملاحق	٢٣
٥	الملحق الأول : محاضرة : *الأدب العربى ومكانته بين الآداب العالمية*	٢٥
٦	الملحق الثانى : محاضرة : *الأدب العربى فى مصر قديمًا وحديثًا*	٤١
٧	الملحق الثالث : محاضرة : *مشاكل الأدب العربى بعد الإسلام*....	٦١
٨	الملحق الرابع : محاضرة : *حول مشاكل الأدب العربى*............	٧٩
٩	الملحق الخامس : قصيدة : *الشاعر محمد الحلوي*.............	٨٥
١٠	الملحق السادس : استجواب عن مجلة الإذاعة الوطنية..............	٩١
١١	الملحق السابع : مقال نشرته جريدة " الجمهورية " المصرية......	٩٩
١٢	الملحق الثامن : صفحة من مذكرات السيدة سوزان..............	١٠٩
١٣	صـــور تذكارية للدكتور *طه حسين*	١١٣

رقم الإيداع ٥٥٩٣ / ٢٠٠٠ / 9 - 37 - 5037 - 977

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١١٤٩٥ / ٩٩